جامعة باجي مختار - عنابة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم اللغة العربية وآدابها

محاضرات في علوم القرآن

إعداد :
الدكتور عمار قرفي

السنة الجامعية 2020-2021

المحاضرة الاولى:

مقدمات حول علوم القرآن :

تعريفات ومفاهيم حول القرآن والوحي والكتاب والمعجزة

مقدمة في علوم القرآن:

إذا كان القرآن هو مصدر الفكر والمعرفة والفهم والإدراك فإن تفسيره وشرحه وفهمه يعد أثرا من آثاره في هذا الوجود، والله تعالى أمر بنيه بتبليغه وتفصيله للناس، وتوضيح ما أشكل على الناس فهمه، وجاء فهمه وبيانه للناس إما بقولٍ مأثورٍ عن رسول الله، أو بفهمٍ أعطيه رجل في كتاب الله كما قال الإمام علي.

ولخدمة القرآن تكونت علوم كثيرة، بعضها يرجع إلى اللفظ، وبعضها إلى المعنى، وأدّى ذلك إلى ابتكار علوم أخرى من العلوم العقلية والأدبية، والشرعية، حتى أمكن للكثيرين أن يقولوا: "إن العلوم العربية والإسلامية كلها تنزيل من التنزيل، أو قبس من السنة النبوية"[1].

ولعل استعمال هذا المصطلح "علوم القرآن" بصيغة الجمع يوحي إلينا بأن هناك علوم كثيرة دخلت كلها في خدمة القرآن إن في لفظه أو معناه أو أحكامه، وشرائحه...الخ.

ولكن علوم القرآن التي نقصدها في دراستنا، هي التي تخدم القرآن في تأويله وتفسيره، ورسمه العثماني، وإعجازه، وتناسب سوره وأسباب نزوله، ومعرفة ناسخه ومنسوخه، وإعرابه، وغريبه، وتاريخه، وتدوينه، وتطور مناهج تأويله.

وعليه، فإن علوم القرآن هي مباحث دينية وعربية مستمدة من العلوم الدينية، والعربية يقصد بها خدمة القرآن من الناحية التي هي موضوع كل علم من تلك العلوم.

لمحة موجزة عن علوم القرآن في عصر النبي (ص) وأصحابه:

1- علال الفاسي، مدخل لعلوم القرآن والتفسير، إعداد وتصحيح عبد الرحمان العربي الحرشي، مؤسسة علال الفاسي، ص 7.

لم يكن هذا العلم معروفا عند الصحابة – رضي الله عنهم – بهذا الاصطلاح وإنما كانوا يتذوقون معاني القرآن الكريم بسليقتهم الأصلية، وعربيتهم العريقة، فإذا أشكل عليهم شيء سألوا رسول الله (ص) فيجيبهم ويرشدهم إلى المعنى المطلوب.

وقد كان أكثر الصحابة – رضي الله عنهم – أميين، رد على ذلك أن النبي (ص) قد نهاهم أن يكتبوا عنه شيئا غير القرآن الكريم، وقال لهم أول العهد بنزول القرآن الكريم: " لا تكتبوا عني ومن يكتب عني غير القرآن فليمحه وحدثوا عني ولا حرج ومن كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار "[1].

وقد كان هذا النهي عن الكتابة مخافة أن يختلط القرآن الكريم بما ليس منه، وقد أذن النبي (ص) لهم بالكتابة بعد ذلك لما عليهم من الالتباس، وهكذا ظلت علوم القرآن من قراءات وتفسير ونحو ذلك تروي بالتلقين والمشافهة طوال عهد الشيخين أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما.

مفهوم علوم القرآن وموضوعاتها:

تشمل علوم القرآن كل ما يتصل بالقرآن الكريم من دراسات فيدخل في ذلك: علم التفسير، وعلم القراءات وعلم الرسم العثماني، وعلم إعجاز القرآن، وعلم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم إعراب القرآن، وعلم غريب القرآن وعلوم الدين واللغة، وما إلى ذلك.[2]

ومفهوم علوم القرآن كما ندرسها اليوم قد تبلور في القرن الثامن على يد الزركشي المتوفي عام 794هـ صاحب البرهان في "علوم القرآن" ثم تبعه في التأليف بشيء من الإيجاز خلال الدين السيوطي صاحب "الإتقان في علوم القرآن"، وهو من رجال القرن التاسع وقد توفي في مفتتح القرن العاشر علم 917هـ، وقد اشتهر كتابه شهرة واسعة بين الدارسين.

1- رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه.

2- محمد عبد السلام كفافي وعبد الله الشريف، في علوم القرآن دراسات ومحاضرات، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ص 27.

وقد أصبح مفهوم علوم القرآن مجموعة من الدراسات القرآنية تتعلق بتاريخ القرآن وما يتصل به من دراسات لابد من الإلمام بها قبل دراسة نصه والإقدام على تفسيره.

فمن هذه المسائل نزول القرآن وجمعه وتدوينه، ومصاحف الصحابة ثم مصحف عثمان ورسمه، ومسائل تتعلق بالنص القرآني مثل: الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والمكي والمدني، وأسباب النزول، والخاص والعام، ومطلق والمقيد، فهذه الدراسات تعتبر بمثابة مقدمة لدراسات القرآن والإقدام على تفسيره واستنباط الأحكام من ثناياه. فهذا هو المعنى الخاص بمصطلح علوم القرآن في عصرنا هذا.

إلا أن بعض الباحثين فهم من عبارة "علوم القرآن" مفهوما ينطوي على كثير من التجوز والتأويل. ذلك لأنهم يرون أن علوم القرآن تعني كل ما يمكن أن يشير إليه من مختلف المعارف وما يدل عليه من المعلومات، وقد ظهر ذلك في اتجاه بعض المحدثين إلى محاولة ربط القرآن بما تطور في زماننا هذا من علوم تجريبية وما ظهر من مخترعات آلية، وليس هذا الاتجاه مما يخدم الدراسات القرآنية، فماذا يكون لو ربطنا بالتأويل البعيد بين نظرية علمية اشتهرت وبين نص قرآني ثم ظهر بطلان هذه النظرية كما يحدث في كثير من الأحيان.

وفي هذا الشأن يقول محمد الزرقاني: " إن القرآن كتاب هداية وإعجاز، ومن أجل هذين المطمحين نزل، وفيهما تحدث، وعليهما دل، فكل علم يتصل به من ناحية هدايته وإعجازه فذلك من علوم القرآن، وهذا ظاهر من العلوم الدينية والعربية.

أما، العلوم الكونية، وأما المعارف والصنائع وما جدّ أو يجدّ في العالم من فنون ومعارف كعلم الهندسة والحساب، وعلم الهيئة والفلك، وعلم الاقتصاد والاجتماع وعلم الطبيعة والكيمياء، وعلم الحيوان والنبات، فإن شيئا من ذلك لا يحمل عدّه من علوم القرآن؛ لأن القرآن لم ينزل ليدلل على نظرية من نظريات الهندسة مثلا، ولا يقرر قانونا من قوانينها، وكذلك علم الهندسة لم يوضع القرآن في شرح آياته أو بيان أسراره، وهكذا القول في سائر العلوم الكونية والضائع العالمية، وإن القرآن دعا المسلمين إلى تعلمها وحذقها والتمهر فيها خصوص عند الحاجة إليها.

وإنما قلنا: إنه لا يجعل اعتبار علوم الكون وضائعه من علوم القرآن مع أن القرآن يدعو إلى تعلمها، لأن هناك فرقا كبيرا بين الشيء يحث القرآن على تعلمه في عموماته أو خصوصاته، وبين العلم يدل القرآن على مسائله ويرشد إلى أحكامه. "[1]

والملاحظ في تاريخ علوم القرآن، أن كثيرا من أجزائه وعناصره استقل بذاته وصار علما منفصلا عن مادة علوم القرآن، بل وتفرّعت تلك العلوم المنفصلة في العصر الأخير، إذا اتجهت كثير من الدراسات الأكاديمية في الجامعات مثل رسائل الدكتوراه إلى دراسات جزئيات من هذا العلم والتعمق فيها حتى صارت علوما مستقلة مثل: علمي التفسير والتأويل، علم القراءات، علم الناسخ والمنسوخ، علم إعجاز القرآن، وهناك دراسات كثيرة تتصل كلها بإعراب القرآن وبمجاز القرآن وبلاغته وبيانه، وظواهر لغوية أخرى كالاشتقاق والمشترك اللفظي والترادف وأسلوب القرآن والإيحاء الفني للفظ القرآني...الخ.

إن كثرة التأليفات في هذه المجالات التي ظهرت بغزارة جعلت علوم القرآن من الاتساع والكثرة فضاء شاسعا للاستزادة والثراء حدّا لا يكاد ينتهي.

الدراسات القرآنية المبكرة:

وأول دراسة قرآنية ظهرت في عهد النبي (ص)، إذ كان يُسأل عن بعض ألفاظ القرآن. فقد سأله أعرابي عن معنى قوله تعالى: **ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕﭼ**[2] فقال الأعرابي وأيّنا لم يظلم نفسه؟ فقال له رسول الله (ص) الظلم الشرك ثم تلا قوله تعالى: **ﭽ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯﭼ**[3].

وفي عهد الصحابة كانوا يتساءلون عن مفهوم كلمة في القرآن كما ورد عن عمر بن الخطاب تلا قوله تعالى: **ﭽ□□ﭼ**[4]، فقال هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ؟ ثم تراجع وقال: إن هذا لهو الكلف يا عمر.

1- محمد الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن.

2- الأنعام: 82.

3- لقمان: 13.

4- عبس : 13.

موقف الصحابة من القول في القرآن:

انقسم الصحابة إلى فريقين:

1- فريق تحرّج في أن يقول في القرآن برأيه ومن هؤلاء: أبو بكر وعمر، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم.

2- وفريق لم يتحرّج وراح يفسّر القرآن مسترشدا بما فهمه من رسول الله (ص) وبالمقارنة بشعر العرب وكلامهم.

ويأتي على رأس هؤلاء؛ علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس ومن أخذ عنهما، وكذلك عبد الله بن مسعود، وأبيّ بن كعب، رضي الله عنهم جميعا، وسار على دربهم الحسن البصري، وسعيد بن جبير وغيرهم، وهؤلاء كانوا يستلهمون روح تفسير رسول الله (ص) وروح القرآن نفسه وبالشعر الجاهلي وعادات العرب وما إلى ذلك من وسائل تمكن من فهم القرآن الكريم.

وكان المفسرون يعتمدون على الشعر العربي وكلامهم في تفسير ألفاظ القرآن وفهم معانيه، فقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال على المنبر: ما تقولون فيها، يقصه قوله تعالى: چڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ککچ[1]، فسكتوا، فقام شيخ من هذيل فقال، هذه لغتنا: التخوف: التنقص، فقال: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ فقال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تَخوّفَ الرَّجُلُ منها تارِكًا قردًا كما تخوّفَ عُودَ النَّبعةِ السَّفَنُ

فقال عمر: عليكم بديوانكم لا تضلّوا قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية. وكان يقول: الشعر علم قوم لم يكن علم أعلم منه.

ولقد ظلت علوم القرآن تروى بالتلقين والمشافهة في هذا العهد أي عهد النبي (ص) وعهد الشيخين أبي بكر وعمر، وفي عهد عثمان بدأ اختلاط العرب بالأعجام، وأمر عثمان أن يجتمعوا على مصحف إمام، وأن تنسخ منه مصاحف للأمصار، وأن يحرق الناس ما عداها.

1- النحل : 47.

ويعدّ هذا العمل أساسا لما سمي فيما بعد "بعلم رسم القرآن أو علن الرسم العثماني". وقد اشتهر أيضا أن عليًّا رضي الله عنه أمر أبا الأسود الدؤلي المتوفي سنة (69 هـ) بوضع القواعد للمحتفظة على سلامة اللغة العربية، فكان علي بذلك واضع الأساس لعلم إعراب القرآن.

ثم انقضى عهد الخلافة الراشدة، وجاء عهد بني أمية، وهمَّة مشاهير الصحابة والتابعين متجهة إلى نشر علوم القرآن بالرواية والتلقين لا بالكتابة والتدوين، لكن هذه الهمة يصح أن نعتبرها تمهيدا لتدوينها، وعلى رأس من ضرب بسهم وفير في هذه الرواية: الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وابن مسعود، وزيد بت ثابت. وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، وكلهم من الصحابة رضوان الله عليهم، وعلى رأس التابعين في تلك الرواية: مجاهد وعطاء، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وزيد بن أسلم، وعنه أخذ ابنه عبد الرحمان، ومالك بن أنس، وهؤلاء جميعا يعتبرون واضعي الأساس لما يسمى علم التفسير، وعلم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم غريب القرآن ونحو ذلك.

عهد التدوين لعلوم القرآن:

ثم جاء عصر التدوين، فأُلفت كتب في أنواع علوم القرآن، واتجهت الهمم قبل كل شيء إلى التفسير، باعتباره أم العلوم القرآنية لما فيها من التعرض لهذه العلوم في كثير من المناسبات عند شرح الكتاب العزيز.

ومن أوائل المؤلفين والكاتبين في علم التفسير: شعبة بن الحجاج، سفيان بن عينية، ووكيع ابن الجراح، وتفاسيرهم، جامعة لأقوال الصحابة والتابعين، وهم من علماء القرن الثاني، ثم تلاهم ابن جرير الطبري، المتوفي سنة 310 هـ وكتابه أجلُّ التفاسير وأعظمها، لأنه أول من تعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض، كما تعرّض للإعراب والاستنباط، وبقيت العناية بالتفسير قائمة إلى عصرنا هذا حتى وجدت منه مجموعة رائعة ومتنوعة شملت كل معاني القرآن ومحتوياته وأحكامه وأسراره وغاياته.

أما علوم القرآن الأخرى فيأتي في مقدمة من ألفوا وكتبوا: علي بن المديني شيخ البخاري إذ ألف في أسباب النزول، وأبو عبيد القاسم بن سلام إذ كتب في الناسخ والمنسوخ وكلاهما من علماء القرن الثالث.

ويأتي في مقدمة من ألف في غريب القرآن: أبو بكر الساجستاني وهو من علماء القرن الرابع. وفي القرن الرابع أيضا نجد أبا بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت. 328 هـ) كتب كتاب (عجائب علوم القرآن) تكلم فيه عن فضائل القرآن ونزوله على سبعة أحرف، وكتابة المصاحف، وعدد السور والكلمات والآيات، وأبا الحسن الأشعري، وله كتاب (المختزن في علوم القرآن) وهو كتاب عظيم جدا، وأبا محمد القصاب محمد بن علي الكرخي (ت. نحو 360 هـ) وكتابه يحمل عنوان (نكت القرآن الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام المنبثة عن اختلاف الأنام)، ومحمد ابن علي الأدفوي (ت. 388 هـ) وكتابه (الاستغناء في علوم القرآن) في عشرين مجلد.

وفي القرن الخامس: علي بن إبراهيم بن سعيد الحوفي (البرهان في علوم القرآن)، وأبو عمر الداني (ت. 444 هـ) (التيسير في القراءات السبع) و(المحكم في النقط).

وفي القرن السابع ابن عبد السلام في مجاز القرآن، وعلم الدين السخاوي في القراءات. ثم نشأت علوم جديدة في القرآن: بدائع القرآن، حجج القرآن، أقسام القرآن، أمثال القرآن. وكانت طريقتهم استقصاء جزئيات القرآن، لذلك وجب اختصار تلك العلوم في علم جديد موحد سموه "علوم القرآن".

تاريخ ظهور مصطلح علوم القرآن:

يري بعض الباحثين أن الاصطلاح "علوم القرآن" بالمعنى الجامع الشامل لم يبدأ ظهوره إلا بكتاب (البرهان في علوم القرآن) لعلي بن إبراهيم ابن سعيد المشهور بالحوفي (ت. 340هـ) ويقع في ثلاثين مجلدا حفظ 15 غير مرتبة ولا متابعة في نسخة مخطوطة في دار الكتب بالقاهرة برقم 59 تفسير. فقد اشتمل هذا الكتاب على بعض علوم القرآن مع أنه في الظاهر تفسير.

وفي القرن السادس ألّف ابن الجوزي (ت. 597 هـ) كتابين أحدهما (فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن)، والثاني (المجتبي في علوم تتعلق بالقرآن)، وهما مخطوطان في دار الكتب بالقاهرة.

وفي القرن التاسع كثر التأليف، فصنّف جلال الدين السيوطي (ت. 911 هـ) كتابه (التحبير في علوم التفسير)، وأتبعه بعد ذلك بكتابه الشهير في هذا المجال (الإتقان في علوم القرآن). وفي هذا القرن أقبل كثير من العلماء على تصنيف الكتب حول القرآن وتاريخه وعلومه، فألف الشيخ طاهر الجزائري (التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن)، والشيخ محمد جمال الدين القاسمي (محاسن التأويل)، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور (التحرير والتنوير). والشيخ محمد علي سلامة (منهج الفرقان في علوم القرآن)، والشيخ طنطاوي جوهري (الجواهر في تفسير القرآن)، وعبد العظيم الزرقاني (مناهل العرفان في علوم القرآن)، وأديب العربية الكبير مصطفى الصادق الرافعي (إعجاز القرآن)، والسيد قطب (التصوير الفني في القرآن)، و(في ظلال القرآن)، ومالك بن نبي (الظاهرة القرآنية) ، وكذلك محمد رشيد رضا (الوحي المحمدي) و(تفسير القرآن الحكيم)، وأخيرا محمد عبد الله دراز (النبأ العظيم). وفي هذه المؤلفات والكتب مباحث ودراسات كثيرة ومتنوعة في علوم القرآن.

وظهرت في السنوات الأخيرة أيضا كتب كثيرة ورسائل جامعية مفيدة يقصد بها تبسيط هذا العلم وتقديمه في ثوب ميسر حتى ينتفع به طالب العلوم الدينية، مثل: (نظرات في القرآن) و(كيف تفهم القرآن) لمحمد الغزالي و(كيف تتعامل مع القرآن) يوسف القرضاوي، و(علوم القرآن) للفاسي الفهري، و(مباحث في علوم القرآن) لصبحي الصالح.

القرآن أصل الشريعة:

إن المتتبع لاجتهادات الفقهاء، وعلماء الشريعة، يلاحظ أن استنباطاتهم واستنساخاتهم تتمحور حول آيات القرآن ومعانيه وتدور حول مقاصده وحكمه، ووظيفة السنة تأتي فيما بعد

تفصّل وتبيّن الهيئات، لذا يرى الإمام الشاطبي ضرورة ملازمة القرآن قراءة وتلاوة ودرسا، لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة، وطمع في إدراك مقاصدها، واللحاق بأهلها.[1]

قال الشافعي: " فإن من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصّا واستدلالا، ووفقه الله للقول والعمل بما علم منه، فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الرّيب، ونوّرت في قلبه الحكمة واستوجب في موضع الإمامة "[2] ثم قال: " فليست تنزل بأحد من دين الله نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها "[3] قال تعالى: **ﭽ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭼ**[4].

فكتاب الله أولاً، وسنة رسول الله (ص) ثانيًا، هما مناهج كل المجتهدين بل هما في الأصل منهاج كل مسلم وعروته الوثقى، ثم اجتهادات علماء الأمة، والتراث الذي خلفوه وراءهم، والثروة الفقهية التي تركوها عبر العصور، يؤخذ منها ويرد، وهي محلّ للنقد والغربلة والتصفية، خاصة أنها أنتجت في بيئة ليست كبيئتنا، ومناخ فكري وثقافي يختلف عنا، وحضارة بعيدة كل البعد عن وضعنا الحضاري الرّاهن.

القرآن أصل العلوم الإسلامية:

العلوم والمعارف التي يزخر بها المسلمون خضعت في مجملها إلى النص القرآني، إما خادمة له وإما مستفيدة منه، حيث تحول النص الإلهي إلى مصدر من مصادر الإنتاج والإلهام المعرفي والعلمي، فارتبطت به العلوم الإسلامية منذ نشأتها إلى أن تطورت بفعل الاجتهاد ومحاولة الفهم للنص القرآني كعلم اللغة، وعلم التفسير، وعلم الفقه، وعلوم القرآن وعلوم الحديث، وعلم الكلام والفلسفة، وعلم الأصول، ونلاحظ من خلال قراءتنا لهذه العلوم، الصلة القوية التي تربط بينها، والتداخل المعرفي المتين في الوظائف، بحكم دورانها جميعا حول محور واحد هو خدمة

1- انظر: الشاطبي، الموافقات، ج ع، ص 144.

2- محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ط1، 1940، ص 10.

3- المرجع نفسه، ص. ن.

4- إبراهيم : 01.

القرآن، فكل العلوم كانت تسير في دائرة حلقية تضع كل علم في خدمة العلم القريب منه في المجال التداولي.

والسؤال الذي نطرحه نحن اليوم، حول وظيفة هذه العلوم التي ارتبطت بالوحي، وتولّدت من قراءة النص القرآني في ضوء الواقع الاجتماعي والثقافي والسياسي للمجتمعات الإسلامية في مرحلة معينة وفي ضوء التغيرات التي حدثت الآن في العالم بأسره والعالم الإسلامي خاصة، هل يستدعي ذلك إعادة النظر في تلك العلوم، وإعادة تأسيسها وفق المناهج الحديثة؟ وهل يعني ذلك إعلان القطيعة عن ماضي الأمة الإسلامية، وهدم معرفتها التراثية وإحداث فصل نهائي عن تلك الثروة المعرفية التي حققت زمن الحضارة الإسلامية؟

وفي المقابل يفضل البعض أن تبقى عقولنا حبيسة البنيات المعرفية والمنهجية للتراث، وأضفى عليها شيئا من القداسة، حتى.....

أثر القرآن في العلوم اللغوية:

فحين تول القرآن افتتن فصحاء العرب وبلغاؤهم ببيانه وإعجازه فتشاغلوا به بحثا عن سرّ ذلك الإعجاز الباهر، كما راح آخرون منها يتعهدون بتفسير ألفاظه وبيان أحكامه، وانبرى ثلة أخرى إلى ضبطه إعجاما وإعرابا، وذلك بعدما فسدت الألسنة وبدأت تلحن في قراءته، وورث جيل بعدهم ما خلف أسلافهم، فزاد على آثارهم شيئا جديدا، وأضاف إلى خطواتهم خطوات، فتناول لغة القرآن بالدرس، وقراءته بالبحث، ووضع الأسس الأولى للدراسات اللغوية، حتى صار الدرس اللغوي في جيلهم والجيل الذي بعدهم يتصف بالنضج، حتى صار الدرس اللغوي في جيلهم والجيل الذي بعدهم يتصف بالنضج، واتسع ميدان الدرس فشمل المادة والمنهج، فاستقر فيها منهجان، عرفا بمدرستي البصرة والكوفة، اللتين كان لأعمال رجالها الأثر الأكبر لصون العربية من الاندثار، وحفظها من الدرس.

"وإذا كانت خدمة القرآن تمثل الحافز المباشر لقيام الدراسات اللغوية، فإن أثر هذا الحافز تضاءل حين أخذت دوافع الدارسين تتمخض لحفظ العربية وصونها من الضياع "[1].

ولما كان القرآن الكريم هو الحافز الأكبر لنشأة الدراسات اللغوية فمن الطبيعي أن تكون هذه النشأة متداخلة ومختلطة، ومن الطبيعي أيضا أن يكون أوائل المتصدين لهذه الدراسات من ذوي الاختصاصات والاهتمامات المتعددة، نظرا لهذا العامل الموحد بينهما، والجامع لأصولها.

فقد ظهر التفسير وعلم الحديث والفقه والقراءات واللغة والنحو والصرف والفلسفة وعلم الكلام والمنطق والمعاني وكثير غيرها من العلوم في أوقات متقاربة جدا لأسباب مشتركة، تقف على رأسها خدمة القرآن أحكاما ولغة وإعجازا، وصرنا نرى مفسرا لغويا، وفقيها محدثا ومقرئا نحويا، وكلاميا صرفيا وهكذا، بل نجد من يجمع أكثر من هذه المعارف أو كلها، جمعا تتفاوت درجة الإتقان من دارس إلى آخر "[2].

والدراسات اللغوية عموما اللغة والنحو والصرف من الدراسات التي اختلطت فيما بينها، ومع غيرها، منذ نشأتها حتى استقلالها حين وضعت أولى المؤلفات الخاصة بكل علم من علومها.

لقد كانت عناية الدارسين الأوائل موزعة على أكثر ميادين المعرفة حينذاك، والسبب في ذلك كما ذكرنا هو خدمة القرآن الكريم في توضيح مراميه، وبيان تشريعه، والبحث عن كنه إعجازه، وتفسير دقائق لغته.

يقول التواتي بن التواتي: " ومن البديهي أن تكون علوم اللغة بفقهها ونحوها، والصرف وفنون البيان، وموضوع عناية الدارسين، فدراستها بعمق تعتبر مدخلا إلى درس علوم الدين والفلسفة والآداب، فهي ضرورة دينية ومعرفة علوم اللغة ماسة جدا في علوم اللغة، سواء كانوا متكلمين كالمعتزلة والشيعة والأشاعرة والظاهرية، أم كانوا متصوّفة وباطنية، أم كانوا فقهاء

1- محمد حسين آل ياسين، الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، ط 1، 1980، ص 9.

2- انظر المرجع نفسه: ص 78.

ومفسرين، أم فلاسفة، لأن اللغة لها علاقة بالنص القرآني، من حيث المعنى والمضمون والمحتوى، واستنباط الأحكام، واستخراج القواعد والأصول التي تبنى عليها الكثير من الأحكام والقوانين والتصوفات الفقهية "[1].

حقيقة الوحي وأنواعه وتوليفاته:

معنى الوحي:

سمّى القرآن هذا الضرب من الإعلام الخفي السريع " وحيا " ولم يبعد عن المعنى اللغوي الأصلي لمادة الوحي والإيحاء.

أولا: مفهوم الوحي لغة:

1- قد يكون بمعنى الإلهام الغريزي للحيوان، كما في قوله تعالى: **چ** ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک کگ گـچ[2]. فقد غرس الله سبحانه وتعالى في طبيعة أسلوب المعيشة، وألهمها كيف تتخذ من الجبال والكهوف بيوتا وأكنانا تأوي إليها لتؤدي رسالتها العجيبة.

2- الإلهام الفطري للإنسان كقوله تعالى: **چ**ٺ ٺ ٺ ٿ ٿٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ **چ**[3].

3- الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء كقوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام: **چ**ۋ ۋ ې ې ې ې □ □ □ □ □**چ**[4]، والمعروف في تفسيرها أن زكريا أشار إليهم إشارة سريعة موحية ولم يتكلم. وعليه قول الشاعر:

نظرت إليها نظـرة فتحيـــرت   دقائق فكري في بديع صفاتها

فأوحى إليها الطرف إني أحبها   فأثر ذلك الوحي في وجناتها

1- تواتي بن التواتي: القراءات القرآنية وأثرها في النحو العربي والفقه الإسلامي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الرويبة- الجزائر، ص28.

2- النحل : 68.

3- القصص 7.

4- مريم : 11.

4- كما عبر القرآن عن وسوسة الشيطان وتزيينه الشر للناس فقال تعالى ﭽ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆﭼ[1] وقال أيضا

ﭽ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﭼ[2]

5- وعبر القرآن أيضا بالوحي عما يلقيه الله إلى الملائكة من أمره ليفعلوه من فورهم كقوله تعالى: ﭽ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓﭼ[3].

ثانيا: مفهوم الوحي اصطلاحا:

عرّفه الشيخ الإمام محمد بقوله: " عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، فالأول بصوت يتمثل لسمعه ويغير صوت، ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجد أن تستيقنه النفس فتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى؟ وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور "[4].

ويعرفه الزرقاني بقوله: " أن يعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سريّة خفية غير معتادة للبشر "[5]. ويكون على أنواع شتى:

أنواع الوحي وكيفياته:

أولا: إلقاء المعنى في قلب النبي (ص): بمعنى نفث الكلام في روعه نفثا بواسطة الملك جبريل عليه السلام من غير أن يراه، على وجه من العلم الضروري لا يستطيع له دفعا ما ولا يجد فيه شكا.

1- الأنعام : 112.

2- الأنعام : 121.

3- الأنفال : 12.

4- محمد عبده العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن.

5- المرجع نفسه.

ثانيا: الكلام من وراء حجاب: وهو أن يكلم الله النبي بكلام يسمعه ويعيه، دون أن يرى المستمع المتكلم سبحانه كما حدث مع موسى عليه السلام، عندما كلمه الله من وراء الشجرة، كما قال تعالى: **چڤ ڦ ڨ ڨ ج ج ڃ ڃ ج ج ڃ ڃ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڇ چچ**[1].

ثالثا: أن يبعث رسولا وهو جبريل عليه السلام: يأتي جبريل إلى النبي (ص) على صورتين:

الصورة الأولى: أن يأتيه مثل صلصلة الجرس.

الصورة الثانية: أن يتمثل له الملك رجلا فيكلمه فيعي ما يقول.

وهاتان الحالتان قد دلّ عليهما الحديث الذي أخرجه البخاري عن عائشة – رضي الله عنها– أن الحارث بن هشام –رضي الله عنه– سأل رسول الله (ص) فقال: " يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله (ص): أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فأعي ما يقول "[2]

الصورة الأولى أن يأتيه الملك مثل صلصلة الجرس، ولعل المقصود منه هذا الصوت الذي ينفرد هو بسماعه حتى لز كان مع الصحابة أن يتهيأ لاستقبال الوحي حتى لا يفاجئه فتأخذه هزة، وهو بذلك يلتزم السكوت محتفظا بعقله، مستحضرا ذهنه، مستجمعا قواه العقلية والإدراكية. وكان رسول الله (ص) يجد في ذلك مشقة (وهو أشد عليّ) حتى أن جبينه ليتفصّد عرقا في اليوم الشديد البرد.

قالت عائشة – رضي الله عنها – : " ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصّد عرقا "[3].

1- القصص : 30.

-2

-3

وقد ذكر الصحابة الذين شاهدوا نزول الوحي على النبي (ص) أن وجه النبي يظهر عليه أمارات معينة كاحمراره فجأة، ويعرق جبينه، ويثقل جسمه وتصتك فرائصه، وتأخذه البرحاء.

أما الصورة الثانية فإنه يتمثل له الملك رجلا فيخاطبه فيعي ما يقول، وهذه الحالة هي أخف عليه وأيسر من سابقتها، فالرسول (ص) يأنس إليه عند سماعه، ويطمئن إليه.

والهيئة التي يظهر فيها جبريل بصورة رجل لا يتحتم فيها أن يتجرد من روحانيته، ولا يعني أن ذاته تحولت إلى رجل، بل المراد أنه يظهر بتلك الصورة البشرية أنسا للرسول البشري، وتخفيفا عليه من وطأة الصلاصل.

رابعا: أن يرى النبي (ص) الملك جبريل في صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها:

وقد رآه النبي (ص) على هيئته الطبيعية التي خلقه الله عليها، وذلك في حياته مرتين:

المرة الأولى عند بداية الوحي، والنبي (ص) يتحنّث في غار حراء، ويدنو من النبي (ص) بعد نزوله من السماء، حيث قال تعالى: ﭽﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎﭼ[1]. وقد روى البخاري عن جابر بن عبد الله وهو يحدث عن فترة الوحي فقال النبي (ص): بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه فرجعت فقلت: زملوني زملوني" فأنزل الله عز وجل ﭽ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﭼ[2].

والمرة الثانية التي شاهد فيه النبي (ص) جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية عندما عرج به إلى السماوات العلى عند سدرة المنتهى، حيث يقول الله تعالى: ﭽﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥﭼ[3] وقال تعالى أيضا: ﭽﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﭼ[4].

1- النجم : 8- 11.

2- المدثر : 1- 2.

3- النجم : 13-17.

4- التكوير: 19-23.

خامسا: أن يكلم الله النبي تكليما مباشرا: وقد نال هذه الخطوة ثلاثة من الأنبياء:

الأول: آدم عليه السلام، عندما عصى ربه وأكل من الشجرة التي نهاه عنها هو وزوجته: قال تعالى: **چ** □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ **چ** [1].

والثاني: موسى عليه السلام، قال تعالى: **چچچچ چچ** [2].

والثالث: محمد (ص) في ليلة الإسراء والمعراج عند سدرة المنتهى بعد أن رفع له البيت المعمور، ثم عرج إلى الله عز وجل، فأوحى إليه ما أوحى، بأن فرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس تعظيما لشأنها وأهميتها في دين الإسلام.

سادسا: الرؤية الصادقة: إن رؤى الأنبياء ومناماتهم كلها وحي صادق، تدخل فمن الواجب تنفيذه وتبليغه في اليقظة. فلقد رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يذبح ابنه، فعلم أن ذلك هو الوحي، فقام على الفور بتنفيذ هذا الأمر. قال الله تعالى: **چ** □ □ □ □ ى ى ې ې □**چ** [3].

والنبي أيضا لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح فقد أورد البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – قالت: " أول ما بدأ رسول الله (ص) من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح "[4].

تعريف القرآن:

سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله على نبيه محمد (ص) بأسماء عديدة، أشهرها "القرآن". حتى صار هذا الاسم علما شخصيا سمي به الكتاب الأخير [5]

1- الأعراف : 22.

2- النساء : 164.

3- الصافات : 102.

4-

5- انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي، ج ص 278، وانظر: الرسالة للشافعي، تحقيق أحمد محمد شاكر ص 14 (الهامش)

وتسمية الوحي الأخير بالقرآن فيه إشارة تتضمن كيفية استقبال البشر له، وهو التلقي بطريق الحفظ، لآن كلمة قرآن، قد تكون مصدرا للقراءة كما سنرى، والقراءة يغلب فيها الاستذكار والتكرار، واستحضار المعاني المختزنة في الذاكرة، ومن يتتبع طريقة انتشار القرآن في الأرض سيلاحظ انتشاره عن طريق الحفظ، لأن طباعة القرآن لم تكن موجودة في أزمنة القرآن الأولى، ولم تتوفر طباعة القرآن إلا في هذه العصور المتأخرة عندما اخترعت وسائل الطبع، من ورق، وآلات، ومصانع.

إن إطلاق لفظة "القرآن" على كلام الله ولم يكن من النبي (ص) ولا من أصحابه، أو غيرهم، ولكن سبقت هذا التسمية من الله عز وجلّ، فهو الذي سماه " قرآن " عند أول ما نزل من القرآن في موضعين:

الأول: قوله تعالى ﭼﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁﮂ[1].

الثاني: قوله تعالى: ﭼﭢ ﭣ ﭤ ﭼ[2].

ثم تكررت التسمية بعد ذلك نحوا من ثمان وستين مرة في آيات متفرقة من القرآن.

أصل تسمية قرآن واشتقاقاتها اللغوية:

في اعتقاد الإمام الشافعي أن "القرآن" اسم علم سميّ به كتاب الله تعالى، ولذلك فهو اسم علم غير مشتق ولا داعي للبحث عن اشتقاق له، سميّ به كلام الله، كما سميّ من قبل المنزل على موسى بالتوراة، وعلى عيسى بالإنجيل. وأسماء الأعلام لا تعتل.

يقول الشافعي: "القرآن اسم وليس بمهموز، ولم يؤخذ من قرأت ولو أخذ من قرأت لكان كل ما قُرئ قرآنا، ولكنه اسم للقرآن مثل: التوراة والإنجيل، يهمز قرأت ولا يهمز القرآن"[3]. أما الفراء فيقول: إنه مشتق من القرائن، جمع قرينة، لأن آياته تشبه بعضها بعضا فكأن بعضها قرينة على بعض.[4]

1- العلق : 1.

2- المزمل : 04.

3- محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، ص 14.

4- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، 1973، ج1، ص 87.

أما الأشعري ومن سار على نهجه فيرى أنه مشتق من قرن الشيء بالشيء، إذا ضمه إليه، لأن السّور والآيات تقرن فيه ويضم بعضها إلى بعض.[1] أما الأشعري ومن سار على نهجه فيرى أنه مشتق من قرن الشيء بالشيء، إذا ضمه إليه، لأن السّور والآيات تقرن فيه ويضم بعضها إلى بعض.[2]

وقال أبو عبيده معمر بن المثنى: " القرآن اسم كتاب الله خاصة، لا يسمى به شيء من سائر الكتب غيره، وإنما سمي قرآنا لأنه يجمع السور فيضمها، وتفسير ذلك في آية من القرآن قال تعالى: چ ﯾ □ □ □چ[3] مجاز تأليف بعضه إلى بعض ثم قال: چ □ □ □ □ □ چ[4]، مجازه فإذا ألفنا منه شيئا، فضممناه إليه فخذ منه، واعمل به وضمه إليك، وقال عمر بن كلثوم في هذا المعنى:

ذِرَاعَيْ عَيْطَلٍ أَدْمَاءَ بكر   هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا

أي: لم تضم في رحمها ولدا أقط، ويقال للتي لم تحمل قط "ما قرأت سلى" وفي آية أخرى قال الله تعالى:چگ ں ں ڻ ڻ ڼ ڼ ۀچ[5] مجازه إذا تلوث بعضه في إثر بعض حتى يجتمع وينضم بعضه إلى بعض، ومعناه يصير إلى التأليف والجمع[6].

ولقد عرف العرب لفظ "قرأ" في معنى غير معنى التلاوة، جاء في لسان العرب: قرأت الشيء قرآنا جمعته وضممت بعضه إلى بعض، ومنه قولهم: ما قرأت هذه الناقة سلى قط، ما

1- بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة 1957. ج1، ص 278.

2- بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة 1957. ج1، ص 278.

3- القيامة : 17.

4- القيامة : 18.

5- النحل : 98.

6- أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، علق عليه د/ فؤاد سركين، مكتبة الخانجي، ج1، ص 2 وما بعدها.

قرأت جنينا قط، أي: لم يضطم رحمها على ولد وأنشد: "هجان اللون لم تقرا جنينا أي: لم يضطم رحمها على الجنين" [1].

وقال الزجاج: إن لفظ القرآن، مهموز على وزن " فعلان " مشتق من القَرْءِ بمعنى الجمع، ومنه قرأت الماء في الحوض إذ جمعته، لأنه جمع ثمرات الكتب السابقة [2].

أما اللحياني فيرى أن لفظ القرآن مصدر مهموز، بوزن الغفران، مشتق من قرأ بمعنى تلا، سمي به المقروء تسمية المفعول بالمصدر [3].

والمصدر من قرآ هو " قرآن " مثل: رَجَحَ رُجْحَان، وغَفَرَ غُفْران وقد يكون قرآن بمعنى مقروء، أو مجموع، أو مضموم، أو بمعنى مظهرٌ ومُبْرَزٌ، أي: القارئ أظهر حروفه وكلماته وأبرزها بنطقه وقراءاته.

فالذين ذهبوا إلى أصل كلمة " قرآن " قرأ لا قرن لم يتفقوا على وجهة نظر واحدة، في معنى " قرأ " لأنها من الألفاظ المشتركة التي تحمل معاني متعددة.

قرأ من القراءة بمعنى التلاوة، وقرأ بمعنى جمع من قرأت الماء في الحوض بمعنى جمعته فيه، وقرأ بمعنى أظهر وأبرز.

وكل راعى معنى من المعاني التي تحتملها كلمة " قرأ " فقال به، والكل صحيح.

إنزال القرآن بلغة العرب:

أنزل الله كتابه إلى الناس جميعا لغة بلغة العرب، قال تعالى: ﭽ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﭼ [4].

وأورد ابن السمعاني سؤالا حسنا وهو انه كان ممن تقدم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مبعوثا إلى قومه خاصة فجاز أن يكون مبعوثا بلسانهم. أما نبينا محمد (ص) فمبعوث إلى جميع الأمم، فلم صار مبعوثا بلسان بعضهم؟ أجاب بأنه لا يخلو إما أن يكون رسول الله

1- ابن منظور: لسان العرب، دار الطباعة والنشر، بيروت، 1935، ج1، ص 128.

2- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1 ص 278.

3- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج 1 ص 87.

4- إبراهيم : 04.

(ص) مبعوثا بلسان جميعهم، وهو خارج عن العرف والمعهود من الكلام، ويبعد بل يستحيل أن ترد كل كلمة من القرآن مكررة بكل الألسنة، فتعيل أن يكون بلسان بعضهم، وكان اللسان العربي أحق من كل الألسنة لأنه أوسع وأفصح، ولأن لسان أولى بالمخاطبين. [1]

ومن هنا نستنتج إن لفظ القرآن إما أن يكون اشتقاقه من مادة: قرن. وإما أنه مشتق من مادة: قرأ.

الاشتقاق الأول: (قرن)

1- إن كلمة "قرن" قد تعني الضم والربط، فتقول: قرنت الشيء بالشيء، أي: ضممت بعضه إلى بعض، فصارا مترابطين، ومن ذلك قولنا: عقد القران، وهو عقد الزواج، ويعني ارتباط الزوجين مع بعضهما البعض وانضمام أحدهما إلى الآخر ليتكون منهما ألفة ولحمة.

وإذا أطلق هذا المعنى على القرآن، فإنه يفيد ارتباط آياته وسوره ببعضها في جمال الأسلوب ومؤدى المعنى، فكل آياته وسوره يصدق بعضها بعضا في انسجام تام وتناغم حتى أنها جميعا تؤلف مبنى واحدا من الفكر، والعقيدة والتشريع.

2- وإن كلمة "قرن" تعني أيضا المشابهة والمماثلة، فقارنت الشيء بالشيء، أي: شابهته به وماثلته، ويصدق هذا المعنى على القرآن جدا، إذ ميزته الأجمل والأشمل والأدق في كل آياته وسوره هي الشبه الذي يحيط بفلسفته الفكرية وجمالياته الأدبية، وآثاره الفنية، فمن أوله إلى آخره لا تشعر أنه مختلف أو مضطرب أو متذبذب و مهتز، ولا يدل أيضا على تباعد الزمن في تأليفه، فكأنه ألف في وقت واحد وقصير ولم يستغرق مدة تتجاوز العشرين عاما، لأن تباعد الزمان بالنسبة لكاتب أو أديب أو مفكر أو فيلسوف يؤثر فيه مباشرة في الشكل والمضمون، ولذلك عندما نقف على أثر أدبي وفكري وروحي مثل القرآن متحد في محتواه، متماثل في أسلوبه وجمال ألفاظه، وهو مع ذلك ناشئ في مدة زمنية طويلة ومتباعدة وفي أماكن متفرقة، فإن هذا يدلنا

1- أورد هذا القول التواتي بن التواتي، القراءات القرآنية وأثرها في النحو العربي والفقه الإسلامي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 51-52.

على أن هذه المشابهة والمماثلة ميزة فيه، لا يشاركه فيها نص آخر على الإطلاق، سواء كان سماويا أو أرضيا. لذا يمكننا أن نحدد معناه في هذا الاتجاه. فنقول: يمكن أن يكون القرآن مشتقا من قرن بمعنى المشابهة أي أن أوله وآخره وكل مقطع من مقاطعه أو فقرة من فقراته متشابهة كلها، تشترك في السمات والخصائص.

الاشتقاق الثاني: (قرأ)

وهذه أيضا لها مدلولان:

1- المدلول الأول: وتعني الجمع، وتقول العرب قديما: " قرأت الماء في الحوض. أي جمعته، ويصح إطلاقه على القرآن من باب أنه: جمع بين آياته، العقيدة والشريعة، الأمر والنهي والحلال والحرام والوعد والوعيد والجنة والنار، جمع أيضا السلوك والآداب والأخلاق والأعمال والأحكام. وقصص الأولين والآخرين وأخبار الأمم والمرسلين.

2- المدلول الثاني: وهو المذهب أهل الفقه والتفسير وجماعة أهل السنة، وهو أن القرآن مصدر كالغفران. سمي به المقروء تسمية المفعول بالمصدر. قال تعالى: ﴿ إِنَ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ أي: قراءته، فجاءت الكلمة -القرآن- مصدرا مرادفا للقرآن.

ثم صار القرآن علما شخصيا على الكتاب الموحى به من الله، والمنزّل على محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - وهذا هو الاستعمال الأغلب في المجتمعات الإسلامية إلى اليوم فأيما مسلم كبيرا كان أم صغيرا. عالما أم جاهلا، مثقفا أم عاميا، رجلا أم امرأة، إذا سألته عن معنى القرآن، فسيجيبك بكل عفوية وبساطة، وبلا تردد أو بجاجة ومن غير إمعان في التفكير أو النظر بأن معنى القرآن أنه المقروء والمتلو، وانه إنما أنزل إلا من أجل ذلك.

أسماء القرآن:

هناك أسماء أخرى اشتهر بها كلام الله أي القرآن. منها:

الفرقان: وأوصله مصدر كذلك، ثم سمي به القرآن. نسبة للمفعول أو الفاعل بالمصدر، باعتبار أنه كلام فارق بين الحق والباطل، أو مفروق بعضه على بعض في النزول، أو في السور والآيات، قال تعالى: چﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝچ [1].

ثم إن هذين الاسمين أي: القرآن والفرقان، هما أشهر أسماء كلام الله تعالى، بل جعلهما بعض المفسرين مرجع جميع أسماءه، كما ترجع صفات الله سبحانه وتعالى على كثرتها إلى معنى الجلال والجمال.

ويلي هذين الاسمين في الشهرة: هذه الأسماء الثلاثة: الكتاب والذكر والتنزيل. وهذه الأسماء هي الشائعة والمشهورة، غير أن بعضهم بالغ في تعداد ألقاب القرآن، حتى ذكر منها الزركشي خمسة وخمسين، ولا ريب أنه خلط فيها بين التسمية والوصف. فذكروا من تلك الأسماء مثلا:

- "العلي" لقوله تعالى: " چڑ ڑ ک ک ک ک گ چ [2].
- ومنها "المجيد" لقوله تعالى: چ□ □ □ □ □ □ □ □ چ [3].
- ومنها "العزيز" لقوله تعالى: چ ک ک ک چ[4].
- ومنها: "الكريم" لقوله تعالى: چ ٱ ب ب چ[5].

ومنها "الذكر المبارك" لقوله تعالى: چ گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ چ[6].

وزاد بعضهما في تسمية القرآن على نحو ما ذكر من تعداد صفاته على أنها أسماء حتى بلغ بها نيّفا وتسعين.

القرآن في الاصطلاح:

1- الفرقان : 01.

2- الزخرف : 04.

3- البروج : 21-22.

4- فصلت : 41.

5- الواقعة : 77.

6- الأنبياء : 50.

والقرآن بأي اسم سميته هو: **كلام الله المعجز المنزل على سيدنا محمد (ص)، والمتعبد بتلاوته، المنقول بالتواتر المكتوب في المصاحف.**

وتعريف القرآن على هذا الوجه متفق عليه بين الأصوليين والفقهاء وعلماء العربية [*].

وقد جمع هذا التعريف الخصائص العظمى التي امتاز بها القرآن الكريم عن سواه وهي: الإعجاز – التنزيل – التعبد – النقل بالتواتر، ولعل أهم صفة ميزت القرآن عن كل كلام سواه سواء كان سماويا أو أرضيا هي صفة الإعجاز. ولذلك اعتبرها العلماء والفقهاء وأهل الاختصاص صفة ذاتية للقرآن، وليست معنوية أو إضافية وهي الآية الكبرى الدالة على صدق النبي محمد (ص)، والشاهد العدل على أن القرآن كلام الله.

وتأتي صفة التنزيل في الدرجة الثانية من اللزومية للقرآني فلولاها لما تحقق وجود القرآن في الواقع، إذ كيف ينشأ في الأرض ويسري في حياة الناس لو لم يتلقاه النبي محمد (ص) بطريق الوحي عن جبريل عن ربه سبحانه وتعالى؟

أما صفة التعبد، فهي الصفة الروحية التي تميز القرآن بتوجيه آثاره النفسية والفنية والجمالية إلى المشاعر والأحاسيس الإنسانية لتنبثق منها أنوار الهداية والاستقامة في الحياة. وهذه صفة تتجرد منها جميع الآثار الإنسانية التي عرفها التاريخ البشري على الإطلاق.

وأما صفتا التواتر والكتابة في المصاحف فهي الصفات الإضافية التي لصقت بالقرآن وميزته عن غيره، إذ لا نجد كتابا آخر انتقل عبر الأجيال بطريق الحفظ والتلقين والنقل المباشر من ذاكرة بشرية إلى ذاكرة بشرية أخرى ثم هو في الوقت نفسه لا يختلف في كلمة أو حرف عما هو محدود ومكتوب في المصاحف.

معنى الكتاب:

---

*– يطلق لفظ القرآن، على كلام كله وعلى أبعاضه، فيقال لمن قرأه كله: إنه قرأ قرآنا. كذلك يقال لمن قرأ ولو آية منه: إنه قرأ قرآنا. وهو ما يفهم من كلام الفقهاء لما قالوا: "يحرم قراءة القرآن على الجنب"، فإنهم يقصدون حرمة قراءته كله أو بعضه على السواء.

الكتاب اسم من أسماء القرآن، ومادة الكتاب مأخوذة في أصلها من الكتب، أي الجمع، ومنه الكتيبة للجيش لاجتماعهما، ثم أطلقت على الكتابة، لجمعها الحروف، وسمي القرآن بذلك لأنه يجمع أنواعا من القصص والآيات والأحكام والأخبار على أوجه مخصوصة[1].

قال عبد الله دراز: وفي تسمية القرآن بهذين الاسمين –القرآن والكتاب– إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أي أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعا فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر [2].

ويقول محمد رشيد رضا: " الكتاب بمعنى المكتوب، وهو اسم جنس لما يكتب، والمراد بالكتاب هذه الرقوم والنقوش ذات المعاني، (...) ومن حكمة الإشارة إليه في قوله تعالى: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ [3] أن النبي (ص) أمر بكتابته دون غيره، فهو الكتاب وحده، ولا يضر أنه عند النزول لم يكن مكتوبا، لأنك تقول، أنا أملي كتابا، أو هلم أمل عليك كتابا، والإشارة البعيدة بالكاف يراد بها بعد مرتبته في الكمال "[4] .

وانطلاقا من هذه الأحاديث راح المسلمون يتطلعون إلى كل شيء في القرآن قصد التقرب به إلى الله تعالى، بقول الإمام السيوطي: "والأمة كلها متعبدة بفهم معاني القرآن، وأحكامه، متعبدة بتصحيح ألفاظه، وإقامة حروفه" ونظرا لما تتميز به القرآن من صفة التعبد، فقد اكتسب نوعا من القداسة والاحترام والإجلال ما جعله مميزا عن كل ما سواء، ومن مظاهر هذه القداسة في حياة المسلمين تحريم قراءته أو مس مصحفه على الجنب والحائض والنفساء، أو حتى على غير المتوضئ في بعض المذاهب، وكذلك عدم قراءته في مكان نجس أو الدخول به

1- انظر: مالك أبو عمرة سونة، قبسات من علوم القرآن، دار الغمام مالك، البليدة- الجزائر، الطبعة الأولى، 2018، ص20.

2- محمد بن عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن الكريم.

3- البقرة : 02.

4- محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم الشعير بتفسير المنار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، ط2، ج1، ص 122.

إليه، وكذلك تحريم أي شيء يوضع فوقه. وكذلك يعتبر الحلف به أو وضع اليد على المصحف أثناء الحلف من أعظم الإيمان، وأوثق العهود.

معنى الإعجاز والمعجزة:

اقترن القرآن دائما بالإعجاز، والإعجاز صفته الذاتية، وهو سار في سريان الماء في العود الأخضر، لا تكاد تخلو سورة أو آية منه.

وإعجاز القرآن ظاهر في لغته وأسلوبه الرائع الخلاب، وبيانه الساحر الأخاذ، فكل نص فيه أو مقطع أو فقرة إلا ودم الإعجاز يجري في عروقها من ألفها إلى يائها. ولذلك فعندما تحدى الله تعالى به كانت النتيجة انه أعجز أساطين الفصحاء، وأعيا مقاويل البلغاء، وأخرس ألسنة فحول البيان من أهل صناعة اللسان، وذلك في عصر كانت القوى فيه قد توافرت على الإجادة والتبريز في هذا الميدان، وفي أمة كانت مواهبها محشودة للتفوق في هذه الناحية.. وإذا كان أهل الصناعة هؤلاء قد عجزوا عن معارضة القرآن، فغيرهم أشد عجزا وأفحش عيّا .

وها قد مر على اللغة العربية من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا، أدوارا مختلفة، بين علو ونزول، واتساع وانقباض وحركة وجمود، وحضارة وبداوة، والقرآن في كل هذه الأدوار واقف في عليائه، يطل على الجميع من سمائه، وهو يشع نورا وهداية، ويفيض عذوبة وجلالا، ويسيل رقة وجزالة، ويتحدى أمم العالم في يقين وثقة، قائلا في صراحة الحق وقوة سلطان الإعجاز وصولته: ﭽ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩﭼ[1].

تعريف المعجزة:

المعجزة هي أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة، يجريه الله تعالى على يد نبيه، شاهدا على صدقه.

وعليه فإن المعجزة لا تكون كذلك إلا إذا توفرت فيها هذه الشروط:

1- أن تكون بما لا يقدر عليه إلا الله رب العالمين.

2- أن تخرق العادة، وتكون مخالفة للسنة الكونية.

1- الإسراء : 88.

3- أن تقع على وفق دعوى النبي المتحدي بتلك المعجزة.

4- أن يستشهد بها مدعي الرسالة على صدق دعواه.

5- ألا يأتي بتلك المعجزة أو بمثلها على وجه المعارضة.

القدر المعجز من القرآن:

ومن عجيب أمر هذا القرآن، وأمر هؤلاء العرب، أنه طاولهم في المعارضة، وتنازل عن التحدي بجميع القرآن، إلى التحدي بعشر سور مثله، ثم إلى التحدي بسورة واحدة من مثله، وهم على الرغم من هذه المطاولة، ينتقلون من عجز إلى عجز، ومن هزيمة إلى هزيمة، وهو في كل مرة من مرات هذا التحدي وهذه المطاولة، ينتقل من فوز إلى فوز، ويخرج من نصر إلى نصر.

تصور أنه قال في سورة الطور أو ما تحداهم: ﭽ ﭖ ﭗ ﭘﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭼ [1]، فلما انقطعوا مدّ لهم في الحبل وقال في سورة هود: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤﭼ[2]، فلما عجزوا هذه المرة أيضا، طاولهم مرة أخرى وأرخى لهم الحبل، إلى آخره فقال في سورة البقرة: ﭽ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ □ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ □ □ □ □ □ □ ﭼ [3].

فكان عجزهم بعد ذلك أشنع وأبشع، وسجل الله عليهم الهزيمة أبد الدهر، فلم يفعلوا ولن يفعلوا ، ودحضت حجتهم وافتضح أمرهم، وظهر أمر الله وهم كارهون.

القرآن معجزة خالدة:

إن معجزة القرآن، قد كتب لها الخلود، فلم تذهب بذهاب الأيام، ولم تمت بموت الرسول (ص) بل هي معجزة قائمة في فم الدنيا، تحاجّ كل مكذب، وتتحدى كل منكر، وتدعو أمم العالم جميعا إلى ما في هذا القرآن من هدايات الإسلام وسعادة بني الإنسان.

1- الطور : 33-34.

2- هود : 13.

3- البقرة : 23-24.

ومن هنا يظهر جليا الفرق معجزة نبي الإسلام ومعجزات إخوانه الأنبياء عليهم السلام، فمعجزة محمد في القرآن وحده آلاف مؤلفة، وهي متمتعة بالبقاء إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم، حتى يرث الله الأرض ومن عليها. أما معجزات سائر الرسل فمحدودة العدد، قصيرة الأمد، ذهبت بذهاب زمانهم، وماتت بموتهم، ومن يطلبها الآن لا يجدها، إلا بما أخبر به هذا القرآن وشهد بوجودها، وسلم بصحتها. وتلك نعمة يمنّها القرآن على سائر الكتب والرسل وما صح من الأديان كافة. قال تعالى: ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ[1].

وهنا نقف هنيهة لنعلم أن حكمة الله البالغة قضت أن تكون معجزة الإسلام باقية بجانبه تؤيده وتعززه إلى قيام الساعة، حتى لا يكون لأحد عذرا في ترك هذا الدين الاخير، الذي هو خاتمة الأديان والشرائع، لذلك اختار الله سبحانه وتعالى أن تكون معجزة الإسلام شيئا يصلح للبقاء، فكانت دون سواها، كلاما يقرأ على سمع الزمان، ويتلى في أذن الدهر، وكان من أسرار الإعجاز فيه بلوغه من الفصاحة والبيان مبلغا يعجز الخلق أجمعين، وكان من عدله تعالى ورحمته، أن اللغة التي صيغت بها هذه المعجزة، هي اللغة العربية دون غيرها من اللغات. لآن اللغة العربية حين مبعث الرسول (ص)، كانت قد بلغت لدى الشعب العربي أوج عظمتها من الاعتناء بها، والاعتداد بالنابغين فيها، والاعتزاز بالجيد منها، وكان هذا الشعب العربي قد استكملت له حينذاك ملكة في النقد والمفاضلة تؤهله بسهولة ويسر، للحكم على جيد الكلام، وزيفه، ووضع كل كلام في درجته من العلو أو النزول، وترجع براعتهم في هذا الناحية إلى أنهم كانوا قد وقفوا عليها حياتهم، والتمسوا من ورائها عظمتهم، وعلقوا عليها آمالهم.

ولا يغيبنّ عنك أن هذا الشعب العربي كان مطبوعا يومئذ على الصراحة في الرأي، لا يعرف النفاق والذبذبة، وكانوا فوق ذلك شجعانا يأنفون الذل، ويعانون الضيم، مهما كلفتهم سجاياهم هذه من بذل مال وسفك دم، فلما نزل القرآن لم يسع هذا الشعب الحر الصريح الأبيّ المتمهى في لغته، إلا أن يلقي السلاح من يده، ويخضع لسلطان هذا التنزيل وبلاغته، ويدين له يؤمن به عن إدراك ووجدان بعد أن ذاق حلاوته، ولمس إعجازه، وحكم بملكته العربية

1- المائدة : 48.

الناقدة. وصراحته المعروفة السافرة، وشجاعته النادرة الفائقة. أن هذا الذكر الحكيم، لا يمكن أن يكون كلام مخلوق من البشر، ولا غير البشر، وإنما هو تنزيل من حكيم حميد.

المحاضرة الثانية :

تاريخ القرآن، نزوله وتنجيمه

التنزيل:

النزول لغة: هناك معنيان بارزان في استعمال اللغة لكلمة "نزول". يفيد الإطلاق الأول: الحلول بالمكان والآوي إليه، ومنه قولهم: "نزل الأمير المدينة". ومنه قوله جل ذكره: ربّ أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين".

أما الإطلاق الثاني فيراد به: انحدار الشيء من علوّه إلى الأسفل نحو " نزل فلان من الجبل "، ومنه قوله تعالى: " أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ".

معنى نزول القرآن:

قال تعالى: ﴿ وَبِالحَقّ أَنْزَلْنَاهُ، وَبِالحَقِّ نَزَل ﴾

وقال أيضا: ﴿ إِنَّا أَنزَلناهُ في لَيْلَة القَدر ﴾

وقال أيضا: ﴿ شَهرُ رَمَضَانَ الذّي فِيهِ القُرآنَ ﴾

فالمراد بمعنى النزول في هذه الآيات؟ هل يراد به الإطلال الأول أو الثاني الذي يدل عليه المعنى اللغوي في الاستعمال؟

لا ريب أن كلا هذين المعنيين لا يليق إرادته هنا في إنزال الله للقرآن، ولا في نزول القرآن من الله، لما يلزم هذين المعنيين من المكانية والجسمية، والقرآن ليس جسما حتى يحل في مكان أو ينحدر من علو إلى أسفل.

إذن فنحن بحاجة إلى التجوز، والمجاز بابه واسع، وميدانه فسيح، والمعنى المجازي الذي ينطبق هنا على كلمة النزول هو الإعلام والإبلاغ والإخبار. والعلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى

المجازي هي اللزوم. لأن إنزال شيء إلى شيء، يستلزم إعلام من أنزل ذلك الشيء به إن كان عاقلا، ويستلزم إعلام من يطلع عليه من الخلق مطلقا. وإذن فالمجاز مرسل.

ويمكن أن يكون هذا التجوز من قبيل الاستعارة التصريحية الأصلية بأن يشبه إعلام السيد لعبده بإنزال الشيء من علو إلى أسفل. وكان اختيار التعبير بمادة الإنزال وما تصرّف منها أو التقى معها، وهو التشويه بشرف ذلك الكتاب، نظرا لما تشير إليه المادة من علوّ صاحب هذا الكتاب المنزل علوا كبيرا. كما قال الله تعالى في فاتحة سورة الزخرف: ﭽ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐﭼ[1].

– تنزلات القرآن:

شرّف الله تعالى هذا القرآن بأن جعل له ثلاثة تنزلات:

أولا: التنزل الأول إلى اللوح المحفوظ، ودليله قوله سبحانه وتعالى: ﭽ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﭼ[2]. وكان هذا الوجود في اللوح بطريقة وفي وقت لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى. وحكمة هذا النزول تعود إلى الحكمة العامة من وجود اللوح نفسه، وإقامته سجلا جامعا لكلما قضى الله وقدّر، وكل ما كان يكون من عوالم الإيجاد والتكوين. قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﭽﭨ ﭩ ﭪ ﭫﭼ[3] . وقال أيضا: ﭽ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧﭼ[4].

التنزّل الثاني: إلى بيت العزة في السماء الدنيا والدليل عليه قوله تعالى: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔﭼ[5]، وقوله أيضا: ﭽ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭼ[6] وقوله أيضا: ﭽ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝﭼ[7] . دلت

1- الزخرف : 1-4.

2- البروج : 21-22.

3- القمر : 53.

4- الحديد : 22.

5- القدر : 01.

6- الدخان : 03.

7- البقرة : 185.

هذه الآيات الثلاثة على أن القرآن أنزل في ليلة واحدة، توصف بأنها مباركة، وتسمى ليلة القدر، وأنها من ليال شهر رمضان.

وقد جاءت الأخبار الصحيحة مبينة لمكان هذا النزول وأنه في بيت العزّة من السماء الدنيا.

سأل الحارث بن هشام النبي (ص) فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال: "أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما أقول ". قال الله تعالى: چ □ □ □ ى ى ي ي
□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ٱ ب ٻ ٻ
ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ٺ ٺ ٿ ٿ ٹ ٹ ٿ ٿ ٹ ٹ ڤ ٹ ٹ چ[1].

وقال الله تعالى في شأن التوراة وأنها أنزلت جملة واحدة چ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦچ[2]،چہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭچ[3] ، چ ٱ ب ٻ ٻ پ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ چ[4]. دلت هذه الآيات على نزول التوراة جملة واحدة.

أنزلت التوراة جملة واحدة لأن سيدنا موسى كان يقرأ ويكتب، وكان سيدنا محمد (ص) أميا لذلك نزل عليه القرآن مفرقاً، ثم إن القرآن كان شريعة أوسع وأكبر وأضخم بينما كانت التوراة أصغر، ثم إن القرآن نزل بالتدريج لكثرة ما فيه من الأمر والنهي والأحكام والشريعة، فكان ذلك أدعى لقبوله، إذ لو نزل مرة واحدة لنفر منه الناس لكثرة ما فيه من شرائع. قال الله تعالى:

1- الشورى : 51-52.

2- الأعراف : 145.

3- الأعراف : 154.

4- الأعراف : 171.

ﭽ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶﭼ[1]. وقال عز وجل ﭽ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﯡ ﯢ ﯣﭼ[2]، وقال كذلك ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗﭼ[3].

ومن تلك الروايات الصحيحة ما أخرجه الحاكم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: " فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبي (ص) ".

وأخرج النسائي والحاكم والبيهقي أيضا من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: " أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة ".

التنزل الثالث: ويمثل المرحلة الأخيرة للنزول، والتي شعّ منها النور على العالم، ووصلت هداية الله إلى الخلق، وكان هذا النزول بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام. هبط به على قلب النبي محمد (ص)، وهو في الأربعين من عمره وفي أرض مكة كان مستقرّه، وبين أهله وعشيرته من أهل قريش صدع به وقرأه على مسمع وملأ من القوم حتى فشى أمره وشاع خبره. ودليله قوله سبحانه وتعالى: ﭽ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﭼ[4].

كيف أخذ جبريل القرآن، وعمن أخذ ؟

هذا من أنباء الغيب، فلا يطمئن الإنسان إلى رأي فيه إلا إن ورد بدليل صحيح من النبي المعصوم (ص). وإن لم يرد فيه الدليل الشرعي فإن الرأي يبقى متحفظا عليه، ولا نسوقه هنا مساق الصحة والاعتقاد وإنما نذكره في معرض حب المعرفة التي يتوق إليها الإنسان.

1- قال الطيبي: لعل نزول القرآن على الملك أن يتلقفه روحانيا أو يحفظه من اللوح المحفوظ، فينزل به على النبي (ص) فيلقيه إليه.

1- الإسراء : 6.

2- الفرقان : 32.

3- الفرقان : 33.

4- الشعراء : 193-195.

2- قال البيهقي: في معنى قوله تعالى: " إنا أنزلناه في ليلة القدر " يريد -والله أعلم- إنا أسمعناه الملك، وأفهمناه إياه ونزل به كما سمع. ومعنى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الله سماعا.

ويؤيد هذا الرأي ما أخرجه الطبراني من حديث النواس بن سمعان مرفوعا إلى النبي (ص): إذا تكلم الله بالوحي، أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله، فإذا سمع أهل السماء صعقوا وخروا سجدا، فيكون أو كلم يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله بوحيه بما أراد، فينتهي به إلى الملائكة، فكلما مر بسماء سأل أهلها: ما قال ربنا؟ قال: الحق، فينتهي به حيث أمر ".

ما الذي نزل به جبريل؟

إن الذي نزل به جبريل على النبي محمد (ص) هو القرآن باعتباره أنه الألفاظ الحقيقية المعجزة من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس، وتلك الألفاظ هي كلام الله وحده، لا دخل لجبريل ولا لمحمد في إنشاءها وترتيبها، بل الذي رتبها أولا هو الله سبحانه وتعالى، ولذلك نسبت له دون سواه، وإن نطق بها جبريل ومحمد، وملايين الخلق من بعد جبريل ومحمد من لدن نزول القرآن إلى يوم الساعة. وذلك كما ينسب الكلام البشري إلى من أنشأه ورتبه في نفسه أولا دون غيره. ولو نطق به آلاف الخلائق، في آلاف الأيام والسنين إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين.

فليس جبريل في هذا القرآن سوى حكايته وإيحائه إليه، وليس للرسول محمد (ص) فيه سوى وعليه وحفظه، ثم حكايته وتبليغه، ثم بيانه وتفسيره، ثم تطبيقه وتنفيذه، يقول الله تعالى: چ ڇ ڃ ڃ چ چ ڍ ڍ چ[1]، چں ں ڻ ڻ ڈ ڈ ۀ ہ ہ ھ ھ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے چ[2].

دليل تنجيم هذا النزول:

1- النمل : 06.

2- الأعراف : 203.

والدليل على تفرق هذا النزول وتنجيمه، قول الله تعالت حكمته في سورة الإسراء چﭑ ﭒ
ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙچ[1]، وقوله چ□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □
□ □ ﯼﯽ ﯾ ﯿ □ ﰀ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ چ[2].

وقد روي أن الكفار من يهود المشرطين عابوا على النبي (ص) نزول القرآن مفرقا، واقترحوا عليه أن ينزل جملة، فأنزل الله هاتين الآيتين ردا عليهم، وهذا الردّ يدلّ على أمرين:

أحدهما : أن القرآن نزل مفرقا على البني (ص).

الثاني : أن الكتب السماوية من قبله نزلت جملة، كما اشتهلا ذلك بين جمهور العلماء حتى كاد يكون إجماعا.

الحكم والأسرار من تنجيم القرآن:

لتنجيم نزول القرآن آثار عدة وحكم كثيرة، نستطيع أن نجملها في أربع حكم رئيسية:

الحكمة الأولى:

تثبيت فؤاد النبي (ص)، وتقوية قلبه، وذلك على وجوه أربعة:

الوجه الأول: أن تجدد الوحي، وتكرار نزول الملك به من جانب الحق سبحانه وتعالى إلى رسوله (ص)، سرورا يملأ قلب الرسول، وغبطة تشرح صدره، وكلاهما يتجدد بسبب ما يشعر به من هذه العناية الإلهية وتعهد مولاه إياه في كل نوبة من نوبات هذا النزول.

الوجه الثاني: أن في التنجيم تيسيرا عليه في حفظه، وفهمه، ومعرفة أحكامه وحكمه، كما أن فيه تقوية لنفسه الشريفة على ضبط ذلك كله.

الوجه الثالث: تأييد حقه ودحض باطل عدوه –المرة بعد الأخرى– تكرارا للذة فوزه وفلجه بالحق والصواب، وشهوده لضحايا الباطل في كل مهبط للوحي والكتاب، وكل ذلك مشجع للنفس ومقوٍّ للقلب والفؤاد.

1- الإسراء : 106.

2- الفرقان : 32-33.

الوجه الرابع: تعهد الله إياه عند اشتداد الخصام بينه وبين أعدائه بما يهون عليه هذه الشدائد. ولا ريب أن تلك الشدائد كانت تحدث في أوقات متعددة، فلا جرم كانت التسلية تحدث هي الأخرى في مرات متكافئة. فكلما آذاه خصمه، سلاه ربه، وتجيء تلك التسلية تارة عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين التي لها في القرآن عرض طويل، وفيها يقول الله تعالى ﭼ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭼ(1).

وتارة تجيء التسلية عن طريق وعد الله لرسوله بالنصر والتأييد والحفظ كما في قوله تعالى ﭼ ﯾ □ □ □ □ □ □ ﭼ(2). وقوله سبحانه ﭼ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﭼ(3)، ونحو ما في سورتي الضحى وألم نشرح، من الوعود الكريمة والعطايا العظيمة.

وطورا تأتيه التسلية عن طريق إبعاد أعدائه وإنذارهم نحو قوله تعالى ﭼ □ □ □ □ ﭼ(4)، وقوله سبحانه ﭼ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭼ(5).

وطورا آخر ترد التسلية في صورة الأمر الصريح بالصبر نحو قوله تعالى ﭼ □ □ □ □ □ □ □ □ ﭼ(6).

أو في صورة النهي عن التفجع عليهم والحزن منهم بنحو قولهم ﭼ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﭼ(7)، ونحو قوله ﭼ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﯤ ﯥ ﭼ(8).

1- هود : 120.

2- الطور : 48.

3- المائدة : 67.

4- القمر: 45.

5- فصلت: 13.

6- الأحقاف: 35.

7- فاطر: 8.

8- النحل: 127.

ويمكن أن تندرج هذه الحكمة بوجوهها الأربعة تحت قول الله تعالى في بيان الحكمة من تنجيم القرآن چ □ □ □ ىچ [1].

الحكمة الثانية:

التدرج في تربية الأمة الناشئة علما وعملا، وينضوي تحت هذا الإجمال أمور خمسة أيضا:

أولها- تيسير حفظ القرآن على الأمة العربية، وهي كما عملت أمة أمية. وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لدى الكاتبين منهم على ندرتهم، وكانت مشتغلة بمصالحها المعاشية، وبالدفاع عن دينها الجديد، فلو نزل القرآن جملة واحدة لعجزوا عن حفظه، ويتهيأ لم استظهاره.

ثانيها- تسهيل فهمه عليهم كذلك، مثل ما سبق في توجيه التيسير في حفظه.

ثالثها- التمهيد لكمال تخليهم عن العقائد الباطلة، وعباداتهم الفاسدة، وعاداتهم المرذولة، وذلك بأن يراضوا على هذا التخلي شيئا فشيئا، سبب نزول القرآن عليهم كذلك شيئا فشيئا، فكلما نجح الإسلام معهم في هدم باطل، انتقل بهم إلى هدم آخر، وهكذا كان يبدأ بالأهم ثم المهم، حتى انتهى بهم آخر الأمر إلى التخلص من تلك الأرجاس كلها، فطهرهم منها وهم لا يشعرون بعنت ولا حرج، وفطمهم عنها بسهولة ويسر، وكانت هذه سياسة رشيدة، لا بد منها في تربية هذه الأمة المجيدة، لا سيما أنها كانت أبية معاندة، تتحمس لموروثاتها، وتستميت في الدفاع عما تعتقده من شرفها وتتهور في سفك الدماء وشنّ الغارات لأنفه الأسباب.

رابعها- تربيتهم على العقائد الحقة، والعبادات الصحيحة، والأخلاق الفاضلة بتلك السياسة الرشيدة. ولهذا بدأ الإسلام بفطامهم عن الشرك والإباحية، وإحياء قلوبهم بعقائد التوحيد والجزاء، من جراء ما فتح عيونهم عليه من أدلة التوحيد، وبراهين البعث بعد الموت، وحجج الحساب والمسؤولية والجزاء، ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة إلى العادات فبدأهم بفرضية الصلاة قبل الهجرة، وثنى بالزكاة وبالصوم في السنة الثانية من الهجرة، وختم بالحج في السنة السادسة منها، وكذلك كان الشأن في أهم التشريعات. أليس ذلك إعجازا للإسلام في سياسة الشعوب وتهذيب الجماعات وتربية الأمم ؟ بلى، والتاريخ على ذلك من الشاهدين.

1- الفرقان : 32-33.

خامسها- تثبيت قلوب المؤمنين وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين بسبب ما كان يقصه القرآن عليهم الفينة بعد الفينة، والحين بعد الحين، من قصص الأنبياء والمرسلين، وما حصل لهم ولأتباعهم مع الأعداء والمخالفين، وما وعد الله به عباده الصالحين، من النصر والأجر والتأييد والتمكين. والآيات في ذلك كثيرة حسبك منها قول العلي القدير ﭽ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﭼ[1]. وقد صدق الله وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭼ[2].

الحكمة الثالثة:

مسايرة الحوادث والطوارئ في تجددها وتفرقها فكلما جدّ منهم جديد، نزل من القرآن ما يناسبه، وفصل الله لهم من أحكامه ما يوافقه، وتنتظم هذه الحكمة في أمور أربع :

أولها- إجابة السائلين على أسئلتهم عندما يوجهونها إلى رسول الله (ص)، سواء أكانت تلك الأسئلة لغرض التأكد من رسالته كما قال تعالى في جواب سؤال أعدائه إياه ﭽ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﯼ ﭼ[3]، وقوله ﭽ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﭼ[4] ... الخ.

الآيات في هذا الموضوع من سورة الكهف، أو كانت لغرض معرفة حكم الله كقوله تعالى ﭽ □ □ □ □ □ □ ﭼ[5] وقوله ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭼ[6].

1- النور : 55.

2- الأنعام: 45.

3- الإسراء: 85.

4- الكهف: 83.

5- البقرة: 219.

6- البقرة: 220.

ولا ريب أن تلك الأسئلة كانت ترفع إلى النبي (ص)، في أوقات مختلفة وعلى نوبات متعددة.

وثانيها- مجاراة الأقضية والوقائع في حينها ببيان حكم الله فيها عند حدوثها ووقوعها. ومعلوم أن تلك الأقضية والوقائع لم تقع جملة، بل وقعت تفصيلا وتدريجا، فلا مناص إذا من فصل الله فيها بنزول القرآن على وفقها تفصيلا وتدريجا.

والأمثلة على هذا كثيرة، منها قول الله سبحانه چ ٱ ب ب ٻ ٻ پچ[1]. وقوله چ ې ۑ ۑ □ □ □ □ □ □ □ □ چ[2].

ومن الأمثلة أيضا چ ٱ ب ب ٻ ٻ پ پ ڀ چ إلى وقوله تعالى چے ۓ ۓﮃ ﮃ ﮄ ﮄ چ[3].

وهن ثلاث آيات نزلت عندما رفعت خولة بنت ثعلبة شكواها إلى رسول الله (ص) من أن زوجها أوس بن الصامت ظاهر منها، وجادلت الرسول بأن معها صبية صغارا إن ضمتهم إلى زوجها ضاعوا، وإن ضمتهم إليها جاعوا.

ثالثها- لفت أنظار المسلمين إلى تصحيح أغلاطهم التي يخطئون فيها وإرشادهم إلى الصواب في الوقت نفسه. ولا ريب أن تلك الأغلاط كانت في أزمان متفرقة، فمن الحكمة أن يكون القرآن النازل في إصلاحها متكافئا معها في زمانها. اقرأ إن شئت قوله سبحانه چ□ □ □ □ □ □ ى ى يېچ[4]، إلى آيات كثيرة بعدها، وكلها نزلت في غزوة أحد إرشادا للمسلمين إلى مواضع أخطائهم في هذا الموقف الرهيب، والمأزق العصيب.

وكذلك اقرأ قوله سبحانه چں ں ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ﮃ ﮃ ﮄ ﮄ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ۑ □ □ □

1- النور: 11.

2- النور: 26.

3- المجادلة: 1-4.

4- آل عمران: 121.

□ □ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜﭝ[1]، وهي آيات تردع المسلمين عن الرذيلة والإعجاب والاغترار في يوم من أيام الله، وتلفت نظرهم إلى مقدار تدارك الله لهم في شدتهم، وإلى وجوب أن يتوبوا إلى رشدهم ويرجعوا إلى ربهم.

رابعا- كشف حال أعداء الله المنافقين، وهتك أستارهم وسرائرهم إلى النبي (ص) والمسلمين، كيما يأخذوا منهم حذرهم فيأمنوا شرهم، حتى يتوب من شاء منهم، اقرأ إن شئت قوله تعالى ﭝﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩﭪ[2]، إلى قوله تعالى ﭝﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﭪ[3]. وهن ثلاث عشر آية فضحت المنافقين كما فضحتهم سورة التوبة في كثير من الآيات، كما كشف القرآن أستارهم في كثير من المناسبات.

الحكمة الرابعة:

الإرشاد إلى مصدر القرآن وأنه كلام الله وحده، لا يمكن أن يكون كلام البني (ص) ولا كلام مخلوق سواه.

بيان ذلك أن القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره، فإذا هو محكم السرد دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه من ألفه إلى يائه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك، ولا تخاذل كأنه حلقة مفرغة ! أو كأنه سمط وحيد، وعقد فريد يأخذ بالأبصار: نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جمله وآياته، وجاء آخره لأوله، وبدا أوله مواتيا لآخره !!

وهنا نتساءل: كيف اتسق للقرآن هذا التأليف المعجز، وكيف استقام له هذا التناسق المدهش؟ على حين أنه لم يتنزل جملة واحدة، بل تنزل آحادا مفرقة تفوق الوقائع في أكثر من عشرين عاما.

1- التوبة: 25-27.

2- البقرة: 8.

3- البقرة: 20.

الجواب: أننا نلمح هنا سرا جديدا من أسرار الإعجاز، ونشهد سمة فذة من سمات الربوبية، ونقرأ دليلا ساطعاً على مصدر القرآن، وأنه كلام الله الواحد الديان ﭽ ﭻ ﭼ ﭽﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇﭼ[1].

وإلا حدثني -بربك- كيف تستطيع أنت ؟ أم كيف يستطيع الخلق جميعا أن يأتوا بكتاب محكم الاتصال والترابط، متين النسج والسرد، متآلف البدايات والنهايات، مع خضوعه في التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر، وهي وقائع الزمن وأحداثه التي يجيء كل جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعا لها، ومتحدثا عنها ؟ !

أما القرآن الكريم فقد خرق العادة في هذه الناحية أيضا: نزل مفرقا منجما، ولكنه ثَمَّ ترابطا محكما وتفرقت نجومه تفرق الأسباب، ولكن اجتمع نظمه اجتماع شمل الأحباب، ولم يتكامل نزوله إلا بعد عشرين عاما، ولكن تكامل انسجامه بداية ونهاية !!

أليس ذلك برهانا ساطعا على أنه كلام خالق القوى والقُدَر، ومالك الأسباب والمسببات، وكدير الخلق والكائنات، وقيوم الأرض والسماوات، والعليم بما كان وما سيكون، الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شؤون ؟؟

لاحظ فوق ما أسلفنا أن رسول الله (ص) كان إذا نزلت عليه آية أو آيات قال: "ضعوه في مكان كذا من سورة كذا"، وهو بشر لا يدري (طبعا) ما ستجيء به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان، ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي والأحداث فضلا عما سينزل من الله فيها، وهكذا يمضي العمر الطويل والرسول على هذا العهد، يأتيه الوحي بالقرآن نجما بعد نجم، وإذا القرآن كله بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتمّ، وينتظم ويتآخى، ويأتلف ويلتئم، ولا يؤخذ عليه أدنى تخاذل أو تفاوت، بل يعجز الخلق طرًّا بما فيه من انسجام ووحدة وترابط ﭽﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﭼ[2].

1- النساء: 82.

2- هود: 01.

وإنه ليستبين لك سرّ هذا الإعجاز، إذا ما علمت أن محاولة مثل هذا الاتساق والانسجام لن يمكن أن يأتي على هذا النمط الذي نزل به القرآن ولا على قريب من هذا النمط، ولا في كلام الرسول (ص)، ولا في كلام غيره من البلغاء.

المحاضرة الثالثة:

مراحل جمع القرآن ومعايير ترتيب سوره

حفظ القرآن في عهد النبي (ص):

قد كان في حياة النبي (ص) مئات من الصحابة يطلق عليهم "حفظة القرآن" قد تخصصوا في تلاوة القرآن، وفي إقراءه، وفي حفظه عن ظهر قلب، وفي معرفة كل سورة في هيئتها المؤقتة أو النهائية، فترى ابن مسعود مثلا يفخر بأنه حفظ أكثر من سبعين سورة من فم الرسول (ص)، وهو بدوره يؤكد أنه في شهر رمضان من كل عام كان يقوم بمراجعة عامة، وتلاوة الآيات التي نزل بها الوحي في حضور جبريل عليه السلام وأنه في العام الأخير راجع عليه جبريل القرآن مرتين مما جعل النبي (ص) يتنبأ بقرب أجله.

لقد كان الناس جميعا ينتظرون الوحي بشغف، ويتمنون أن يتلقوه فور نزوله، كما أن أعداء الرسول أنفسهم الذين لم يكونوا يهملون شأن القرآن، كانوا يحرصون على سماعه إما للبحث عن نقاط ضعف فيه تعينهم على مغالبته، أو مهاجمته، وإما لإشباع حاجتهم الملحة في التذوق الأدبي، ويمكننا أن نتصور إذا مدى الاهتمام الذي كان يثيره القرآن في نفوس المؤمنين

خاصة، فقد كان بالنسبة إليهم غذاء الروح، وقاعدة السلوك، ونصوص الصلاة، وأداة الدعوة إلى الإسلام، كان نشيدهم وتاريخهم، وكان قانونهم الجوهري ودستورهم في كل شؤون الحياة [1].

كتبة الوحي:

ولهذا كان الرسول (ص) كلما جاءه الوحي وتلاه على الحاضرين أملاه من فوره على كتبة الوحي ليدونوه على أي شيء كان في متناول أيديهم، مثل الورق أو الخشب أو قطع الجلد أو صفائح الحجارة وكسر الأكتاف...الخ، ويذكر العلماء الثقاة أن عدد كتّاب الوحي بلغ تسعة وعشرون كاتبا، وأشهرهم الخلفاء الخمسة الأوائل: (أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية) والزبير بن العوام، وسعيد بن العاص، وعمرو بن العاص، وأبيّ ابن كعب، وزيد ابن ثابت، ولكن معاوية وزيد بن ثابت كانا أكثر ارتباطا بهذا العمل، وإذا كان عدد كتبة الوحي بمكة لم يبلغ هذه الكثرة، ومهمة الكتابة ذاتها لم تأخذ هذا الطابع الرسمي، فإن هناك واقعة أكيدة ذاتها لم تأخذ هذا الطابع الرسمي، فإن هناك واقعة أكيدة هي أن المؤمنين لم يتوانوا منذ البداية، بل وخلال صنوف الاضطهاد التي تعرضوا لها في تسجيل الآيات القرآنية التي وصلتهم في مخطوطات شخصية لاستعمالهم الخاص، وكان إسلام عمر – كما ورد في الأثر– راجعا لقراءته لآيات أول سوره "طه" التي وجدها مكتوبة على ورقة كانت تحملها أخته.

ومن الجلي أن هذا المخطوطات على هيئتها البدائية لم تكن تمثل مجموعة متجانسة ومنظمة ومرقمة، فلم يكن عند الأفراد في هذه الحقبة نسخة واحدة كاملة من القرآن.

وإنما كانت المخطوطات متفرقة ومبعثرة بين المؤمنين ولم تأخذ شكلها النهائي في صدورهم إلا قرب نهاية حياة الرسول (ص)، وحتى تتاح الفرصة لسور القرآن لكي يتم بناؤها تدريجيا، كان ينبغي الانتظار إلى أن يكتمل الوحي كله لإخراج القرآن في شكل وحدة كاملة،،

1– انظر: محمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم، عرض تاريخي وتحليل مقارن، مكتبة الفنون والآداب، القاهرة، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ص 37.

إلا أن غياب هذا التتابع بين الآيات المكتوبة في هذه المرحلة لم يحل بين المؤمنين وبين المعرفة الشفوية لموضع كل آية [1].

كتابة القرآن: "التوثيق"

كانت الكتابة الأولى للقرآن الكريم في عهد رسول الله (ص) أثناء نزوله، إذ كان النبي (ص) يأمر بكتابة كل ما ينزل من الوحي، ويمنع كتابة شيء سواء، حتى لا يختلط به ما ليس منه.

روى أبو سعيد الخذري –رضي الله عنه– أن النبي (ص) قال: " لا تكتبوا عني شيئا سوى القرآن فمن كتب عني شيئا سوى القرآن فليمحه "[2].

وبهذا النهي توقف الصحابة عن كتابة الأحاديث في عهد الرسول (ص) صيانة للقرآن الكريم من كل شبهة، حتى يظل مصونا من كل زيادة أو تبديل أو تغيير، ولهذا السبب كان النبي(ص) يحذر من الاهتمام الكتابي والمعرفي بغير القرآن الذي يعتبر مصدر ثقافة المسلم ومعرفته وسلوكه، ومصدر موهبته وإبداعه وابتكاره ومصدر نظامه وتعليمه وتهذيبه، قال أبو هريرة –رضي الله عنه– : "خرج علينا رسول الله (ص)، ونحن نكتب الأحاديث، فقال: ما هذا الذي تكتبون ؟ قلنا أحاديث سمعناها منك ! قال: أكتابا غير كتاب الله تريدون ؟ ما أضلّ الأمم من قبلكم إلا ما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى ".[3]

وفي ضوء هذا النهي عن كتابة الحديث الشريف في عهد رسول الله (ص) نستطيع القول بأن القرآن الكريم كتب كله بأقلام كتاب الوحي وغيرهم من الكاتبين.

إلا أنه لم يجمع في مصحف واحد، لأن الحاجة لم تكن ماسّة إليه إذ ذلك حيث كان الصحابة يتنافسون في حفظه، والرسول (ص) بين ظهرانيهم يتلو عليهم آياته ويبين لهم أحكامه.

1- انظر المرجع السابق، ص 38- 39.

2- الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، تقييد العلم، تحقيق يوسف العش، نشر دار إحياء السنة النبوية، ص 29.

3- المرجع السابق، ص 33.

وذكر الخطّابي سببا آخرا وجيها في عدم جمع القرآن في مصحف واحد على عهد رسول الله (ص) فقال: " إنما لم يجمع النبي (ص) القرآن في مصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاءً بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة "[1].

وقد نقل السيوطي عن البغوي قوله: " الصحابة –رضي الله عنهم جميعا– جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله على رسوله من غير أن زادوا أو نقصوا منه شيئا خوف ذهاب بعضه بذهاب بعضه بذهاب حفظته فكتبوه كما سمعوا من رسول الله (ص) من غير أن قدموا شيئا أو أخروا أو وضعوا له ترتيبا لم يأخذوه من رسول الله (ص)، وكان رسول الله (ص) يلقن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل إياه على ذلك، وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا فثبت أن سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد لا في ترتيبه، فإن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب "[2].

آراء المستشرقين حول جمع القرآن في عهد النبي (ص) والرد عليهم:

قال المستشرق آرثر جفري في مقدمته وهو يحقق كتاب المصاحف لأبي داود: " الرأي الشائع في أن القرآن الكريم في أن القرآن الكريم كتب في عهد النبي (ص) لا يقبله المستشرقون لأنه يخالف ما جاء في أحاديث أخرى أنه قبض صلى الله عليه وسلم لم يجمع في القرآن شيء"[3].

ثم يسترسل المستشرق آرثر جفري وهو يَرِد الأدلة فحسب اعتقاده وقناعته، فيرى "من خوف عمر وأبي بكر لما استحرّ القتل بالصحابة يوم اليمامة، وسبب الخوف هو قتل القراء

1- الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص 57.

2- المرجع السابق، ج1، ص 61. وانظر أيضا القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، ص 3- 7.

3- مقدمة كتاب المصاحف لابن أبي داود تحقيق آرثر جفري، المطبعة الرحمانية، طبعة أولى، ص 5.

الذين كانوا قد حفظوا القرآن الكريم، ولو كان القرآن قد جمع وكتب لما كانت هناك علة نحو فهمها "[1].

ويبدو أن المستشرق آرثر جفري لم يدقق النظر في معنى عبارة أن القرآن لم يجمع في عهد النبي، وفهم من هذه العبارة عدم الكتابة، وعذر المستشرقين جهلهم بصيغ اللغة العربية، فنحن لا نفهم عبارة لم يجمع بمعنى لم يكتب وهو ما فهمه هذا المستشرق، وإنما فهمنا أن المقصود منها لم يجمع كله مرتبا في شكل مصحف واحد إلا في زمن أبي بكر الصديق.

أما الكتابة فقد أثبتت الروايات كتابة القرآن في زمن النبي (ص)، وأنه ما نزلت آية إلا وقد أمر الرسول (ص) من يكتب له أن يضعها في موضع كذا من سورة كذا [2].

وزيادة في تأكيد عملية التوثيق للنص القرآني كان الصحابة يعرضون ما يحفظونه على رسول الله (ص)كعبد الله بن مسعود الذي يقول: "قال لي رسول الله (ص):" اقرأ علي، ففتحت سورة النساء، فلما بلغت: چڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گچ[3]، رأيت عينيه تذرفان من الدمع، فقال: حسبك الآن "[4].

أما تخوف عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق فلأنهما كانا على رأس قيادة الأمة الإسلامية وقت نشأتها وهي لا تزال فتية طرية فكان لابد لهذه الأمة من وثيقة رسمية يرجع إليها الناس في طريقة أداء وقراءة النص القرآني حتى يلتقي المحفوظ بالمكتوب فلا تكون فجوة بينهما، ذلك لأن طريقة أداء هذا المكتوب لا تتأتى إلا عن طريق التلقين والرواية، ومن هنا نشأ خوف الخليفتين الجليلين من أن يموت القراء فتتعثر طريقة الأداء [5].

جمع القرآن بمعنى كتابته وتدوينه :

– جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

1- المرجع نفسه، ص 5.

2- مقدمتان في علوم القرآن ص 27.

3- النساء: 41.

4- عبد الفتاح شلبي: أبو علي الفارسي، مطبعة النهضة مصر.

5- المرجع السابق.

لقد كتب القرآن كله على عهد رسول الله (ص)، إلا أنه كان مفرق الآيات والسور، وأول من جمعه في مصحف واحد مرتب الآيات، كما رويت محفوظة عن النبي (ص) هو أبو بكر الصديق.

قال أبو عبد الله المحاسبي :" كتابة القرآن ليست بمحدثة، فإنه (ص) كان يأمر بكتابته، ولكنه كان مفرقا في الرقاع والأكتاف والعسب، وإنما أمر الصديق بنسخا من مكان إلى مكان مجتمعا، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله (ص)، فيها القرآن منتشرا، فجمعها جامع وربطها بخيط، حتى لا يضيع منها شيء" [1].

وكان جمع أبي بكر الصديق بعد موقعة اليمامة سنة اثنتي عشرة للهجرة، حيث استشهد سبعون رجلا من حفظة القرآن، فهال ذلك عمر بن الخطاب، وجاء يقترح على أبي بكر جمع القرآن. روى البخاري عن زيد بن ثابت، قال: " أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال: زيد بن ثابت، قال: " أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال: ن القتل قد استحر يوم اليمامة في الناس، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القراء إلا أن تجمعوه، إني لا أرى أن تجمع القرآن. قال أبو بكر: فقلت لعمر: كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله (ص) ؟ فقال: هو والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر، قال زيد: وعنده عمر جالس لا يتكلم. فقال لي أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا تنهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله (ص)؟ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم يزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر ابي بكر وعمر، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب، وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع غيره ﴿ لَقَدْ

1- البرهان للزركشي، ج1 ص 238. والإتقان للسيوطي، ج 1 ص 101.

جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ إلى آخرها. فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر" [1].

وكان زيد لا يقبل الآية غلا من شاهدين، هما الحفظ والكتابة، وبهذا فسر ابن حجر المراد بالشاهدين من قول لعمر لزيد:" اقعد على باب المسجد، فمن جاءك بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه"[2]. وواضح من تفسير ابن حجر الاكتفاء بشاهد واحد على الكتابة وشاهد واحد على الحفظ.

وقول زيد: لم أجدها إلا مع أبي خزيمة، ليس فيه إثبات القرآن بخبر واحد، لأن زيدا كان قد سمعها وعلم موضعها ... وتتبعه للرجال كان للاستظهار لا لاستحداث العلم [3].

وقد تم لأبي بكر جمع القرآن كله خلال سنة واحدة تقريبا، قال علي بن أبي طالب: "رحم الله أبا بكر، هو أول من جمع كتاب الله بين اللوحتين" [4]. وقد سجل التاريخ لعمر بن الخطاب أنه صاحب الفكرة، كما سجل لزيد أنه وضعها موضع التنفيذ.

ويبدو أن تسمية القرآن "بالمصحف" نشأت على عهد أبي بكر، فقد أخرج ابن أشتة في كتاب المصاحف من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال : جمعوا القرآن، فكتبوه على الورق، قال أبو بكر: التمسوا له اسما، فقال بعضهم: "السفر"، قال: ذلك اسم تسميه اليهود، فكرهوا ذلك، وقال بعضهم: "المصحف"، فإن الحبشة يسمون مثله المصحف، فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف[5].

1- صحيح البخاري، كتاب "فضائل القرآن".

2- الإتقان، ج1 ص 100.

3- انظر صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص 76.

4- البرهان، ج1 ص 239.

5- الإتقان، ج1 ص 89.

وقد ظفر مصحف أبي بكر بإجماع الأمة عليه وتواتر ما فيه، وأكثر العلماء على أن كتابة طريقته اشتملت على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، فشابه في هذه الناحية جمع القرآن الأول على عهد رسول الله (ص) [1].

– جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه:

روى البخاري في صحيحه بسنده عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه " أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن ارسلي إلينا بالمصحف، ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت به حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنه إنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، ردّ عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق " [2].

نستنتج من هذا النص أمورا خمسة ذات أهمية بالغة :

1- أن اختلاف المسلمين في قراءة القرآن كان هو الدافع الأساسي من أمر عثمان باستنساخ مصحف حفصة وجمعها في مصاحف وإرسالها إلى الأمصار.

2- أن اللجنة التي كلفت بهذا العمل كانت رباعية، فكان منهم زيد مدنيا، وأما الثلاثة الآخرون فكانوا مكيين من قريش، وهؤلاء الأربعة جميعا كانوا ثقات الصحابة وأفاضلهم.

3- أن اللجنة الرباعية باتخاذها مصحف حفصة أساسا لنسخ المصاحف إنما استندت إلى أصل أبي بكر.

1- انظر مباحث في علوم القرآن، ص 78.

2- صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، والإتقان، ج1 ص 102.

4- أن القرآن نزل بلغة قريش، فهي اللغة المفضلة لكتابة القرآن عند حدوث الخلاف بين القرشيين الثلاثة وزيد.

5- أن عثمان أرسل إلى الآفاق الإسلامية بمصحف مما نسخه هؤلاء الأربعة، ورأى حسما للنزاع حرق ما عدا ذلك من الصحف والمصاحف الخاصة.

وقد وقع عمل عثمان من قلوب الناس موقع القبول والاستحسان إلا عبد الله بن مسعود الذي كان له مصحف خاص به، فقد عارض في بادئ الأمر وأبى أن يحرق مصحفه، ثم تراجع بعد ذلك فعمل برأي عثمان، وهو موقف الأمة كلها في ذلك الوقت.

وقد شرعت اللجنة الرباعية في تنفيذ قرار عثمان سنة خمس وعشرين، وإنما أمرهم عثمان أن ينسخوا من مصحف حفصة مع أنهم كانوا جمّاعا لكتاب الله في صدورهم، لتكون المصاحف مستندة إلى أصل أبي بكر المستند بدوره إلى أصل النبي (ص) المكتوب بين يديه بأمره وتوقيفه، فسدّت بذلك كل ذريعة للتقول والتشكيك.

قال أبو عبد الله المحاسبي :" تلك المصاحف التي كتب منها القرآن كانت عند الصديق لتكون إماما ولم تفارق الصديق في حياته، ولا عمر أيامه، ثم كانت عند حفصة لا تمكن منها، ولما احتيج إلى جمع الناس على قراءة واحدة، وقع الاختيار عليها في أيام عثمان، فأخذ ذلك الإمام ونسخ في المصاحف" [1].

ولما أعيدت صحف حفصة إليها ظلت عندها حتى توفيت، وقد حاول مروان بن الحكم (ت 65 هـ) أن يأخذها منها ليخرقها فأبت، حتى إذا توفيت أخذ مروان الصحف وأخرقها، وقال مدافعا عن وجهة نظره :" إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف الإمام، فخشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في هذه الصحف مرتاب" [2].

ولم يكتف عثمان بإرسال المصاحف إلى الأمصار، بل أرسل مع كل مصحف مقرئ يقرئ الناس القرآن، حتى لا يتكلوا على الكتابة ويتكاسلوا في حفظ كلام الله.

1- البرهان، ج1 ص 239.

2- مباحث في علوم القرآن، ص 83.

فكان زيد بن ثابت مقرئ المصحف المدني، وعبد الله بن السائب السلمي مقرئ المكي، والمغيرة بن شهاب مقرئ الشامي، وأبو عبد الرحمن السلمي مقرئ الكوفي، وعامر بن عبد القيس مقرئ البصري [1].

أما إحراق عثمان للمصاحف الفردية، فلم يقدم عليه إلا بعد مشورة وتأييد من الصحابة الكرام، فهذا سويد بن عفلة يقول: "قال علي: لا تقولوا في عثمان إلا خيرا، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملإ منا "[2]. وقال علي أيضا: " لو وليت ما ولي عثمان لعملت بالمصاحف ما عمل." [3].

ترتيب آيات القرآن وسوره:

أخرج الحاكم في المستدرك عن الشيخين عن زيد بن ثابت أنه قال:" كنا عند رسول الله (ص) نؤلف القرآن من الرقاع" [4]. ويشعرنا هذا الحديث بأمرين:

1- أن أدوات الكتابة والجمع في عهد رسول الله (ص) كانت بدائية وبسيطة.

2- أن ترتيب السور والآيات كانت وفق إشارة النبي (ص) وتوقيفه. قال الزركشي: " فأما الآيات في كل سورة ووضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك، ولا خلاف فيه، ولهذا لا يجوز تعكيسها" [5]، وهو يقصد وجوب التزام هذا الترتيب التوقيفي بين الآيات، بحيث لا يقدم فيها ولا يؤخر.

1- الزرقاني، مناهل العرفان، ج1 ص 396.

2- الإتقان، ج1 ص 103.

3- البرهان للزركشي، ج1 ص 240.

4- البرهان، ج1 ص 237 والإتقان، ج1 ص 99.

5- البرهان، ج1 ص 256.

وأخرج أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالسا عند رسول الله (ص) إذ شخص ببصره ثم صوبه، ثم قال: " أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضوع من هذه السورة ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى﴾ إلى آخرها"[1]

وفي كتب السنة كثير من الأحاديث التي تصور رسول الله (ص) يملي القرآن على كتاب الوحي ويوقفهم على ترتيب الآيات، وقد ثبت أنه قرأ سورا عديدة بترتيب آياتها في الصلاة أو في الخطبة بمشهد من الصحابة، فكان ذلك دليلا صريحا على " أن ترتيب الآيات توقيفي، وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيبا سمعوا النبي يقرأ على خلافه، فبلغ ذلك مبلغ التواتر"[2].

أما ترتيب السور فتوقيفي أيضا، وقد علم في حياته (ص) وهو يشمل السور القرآنية جميعا، ولا مسوّغ للرأي القائل: إن ترتيب السور اجتهاد من الصحابة.

إن تأليف السور على هذا الترتيب الذي نجده اليوم في المصاحف، هو توقيفي ولا مجال فيه للاجتهاد، وإننا نفهم من حديث عثمان ابن أبي العاص السابق والذي أخرجه الإمام أحمد أن جبريلا وقف رسول الله على ترتيبه، ورسول الله (ص) بدوره وقف كتبة الوحي على ذلك الترتيب، وإذا كان القرآن كله كتب في عهد رسول الله (ص)، فقد نبههم إلى مواضع الآيات والسور بتوقيف من الله، ولقد أجمع العلماء على كتابته في عهد رسول الله (ص) لوحظ فيه أمران:

1- ترتيب الآيات والسور.

2- اشتمال تلك الكتابات على الأحرف السبعة.

1- الإتقان، ج1 ص 104.

2- الإتقان، ج1 ص 105.

المحاضرة الرابعة: مكونات النص القرآني

اللفظة، العبارة، الآية، السورة

مكونات النص القرآني:

أولا– السورة:

تعريف السورة: لدون همز وهو مشهور، كغرفة وغرف، ومعناها: المنزل المرتفع، وسورة المدينة، أو المنزلة الرفيعة، ومنه قول النابغة:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَبْذَبُ

أي منزلة رفيعة على سائر الملوك.

وقد قيل في القطعة من القرآن المشتملة على أي دواء فاتحة وخاتمة وأقلها ثلاث آيات– سورة، لأنها تحيط بالآيات التي تضمها إحاطة السور أو لارتفاعها وشرفها.

وقد قيل إنها سميت بذلك لتمامها وكمالها، من قول العرب للناقة التامة سورة، ولعل هذا أقرب الآراء[1] .

عدد السور واختلاف مقاديرها:

وسور القرآن مختلفة طولا وقصرا، فأقصر سورة فيه سورة الكوثر، وهي ثلاث آيات قصار، وأطول سورة فيه البقرة وهي خمس وثمانون أو ست وثمانون ومائتا آية، وأكثر آياتها من الآيات الطوال. وتبلغ عدد سور القرآن أربعة عشر ومائة سورة يقسمها العلماء إلى أربعة أقسام لكل منها اسم معين، وهي: الطوال، والمئين، والمثاني، والمفصل.

– فالطوال سبع سور: البقرة وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، وأخيرا يونس، أو الأنفال والتوبة معا، لعدم الفصل بينهما.

– والمئون: هي السور التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها.

– المثاني: هي التي تلي المئين في عدد الآيات.

– والمفصّل: هي أواخر القرآن، وصحح النووي أو أوّله سورة الحجرات، وسمي بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة.

والمفصل ثلاثة أقسام: طوال وأواسط، وقصار. فطواله من أول الحجرات إلى سورة البروج، وأواسطه من سورة الطارق، إلى سورة " لم يكن " وقصاره من سورة الزلزلة إلى آخر القرآن [2].

أسماء السور:

قال الأسيوطي: "وقد ثبتت أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار"[1]. وتسمى السورة في القرآن باسم شيء ذكر فيها ولم يذكر غيرها مثل "الإسراء" نسبة إلى ذكر الإسراء في

1– عدنان محمد زرزور، علوم القرآن، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1981، ص 102.

2– الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ج1، ص 186.

الآية الأولى منها، ومعروف إن الإسراء ذكر مرة واحدة في القرآن في هذه السورة التي سميت سورة الإسراء، لأن الإسراء ذكر في القرآن مرة واحدة فيها. وكذلك سورة الكهف، سميت بهذا الاسم لأن قصة أصحاب الكهف لم تذكر في القرآن إلا مرة واحدة فقط في هذه السورة، وقل مثل ذلك في سورة الفيل، وفي سورة " البقرة " وسميت سورة النساء بهذا الاسم لكثرة ما ورد فيها من تفصيل أحوالها، وهكذا في تسمية سائر سور القرآن.

وقد يكون للسورة اسم واحد، وهو جل سور القرآن، وقد يكون لها اسمان أو أكثر، فمثلا سورة الإسراء تسمى أيضا سورة بني إسرائيل، وسورة التوبة وتسمى براءة والكاشفة والفاضحة، وسورة غافر وتسمى سورة المؤمن، لأن قصة مؤمن آل فرعون لم تذكرة في القرآن إلا مرة واحدة في هذا الموضع من هذه السورة، وسورة محمد أيضا تسمى سورة القتال، وكذلك الفاتحة وتسمى أيضا بأم القرآن. وفاتحة القرآن، والشافية، والكافية، والسبع المثاني، وسورة النحل وتسمى بسورة النعم لما عدّد الله فيها من كثرة النعم. وقد ذهب بعضهم إلى كراهة هذه التسميات، قال الزركشي: "ينبغي البحث عن تعداد الأسامي هل هو توقيفي أو يظهر من المناسبات؟ فإن كان الثاني فلم يعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسامي لها، وهو بعيد "[2].

مميزات السورة في القرآن:

تمتاز السورة القرآنية بضخامة المعاني وكثرتها وتنوعها، رغم وجازة ألفاظها، ومتانة أسلوبها، وزينة هذه الثروة المعنوية الكثيفة تكمن في تناسق أوضاعها، وائتلاف عناصرها، وتشابك موضوعاتها، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها.

وإن التماسك والتعانق بين موضوعات كل سورة في القرآن، والتقريب بين أجزاء تلك المعلومات، والتداخل العجيب بين عناصر الفكرة داخل كل موضوع يعطي للسورة جماليتها الفنية من خلال بنائها اللغوي وخصائصها البيانية والأسلوبية.

1- انظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي ج1، ص 229.

2- البرهان في علوم القرآن للزركشي، ج1، ص 186.

يقول محمد عبد الله دراز: " إن ما يمتاز به أسلوب القرآن من اجتناب سبيل الإطالة، والتزام جانب الإيجاز –بقدر ما يتسع له جمال اللغة– قد جعله هو أكثر الكلام افتتانا، نعني أكثره تناولا لشؤون القول والسرعة تنقلا بينها، من وصف، إلى تشريع، إلى جدا، إلى ضروب شتى، بل جعل الفن الواحد منه يتشعب إلى فنون، والشأن الواحد فيه ينطوي تحته شؤون وشؤون "[1].

ثم يقول: " أولست تعلم أن القرآن –في جل أمره– ما كان ينزل بهذه المعاني المختلفة جملة واحدة، بل كان ينزل بها آحادا على حسب الوقائع والدواعي المتجددة، وأن هذا الانفصال الزماني بينها، والاختلاف الذاتي بين دواعيها، كان متتبعا لانفصال الحديث عنها على ضرب من الاستقلال والاستئناف لا يدع بينها منزعا للتواصل والترابط؟

ألم يكن هذان السببان قوتين متظاهرتين على تفكيك وحدة الكلام وتقطيع أوصاله إذا أريد نظم طائفة من تلك الأحاديث في سلك واحد تحت اسم سورة واحدة؟ [2]

"خذ بيدك بضعة متون كاملة من الحديث النبوي كان التحدث بها أوقات مختلفة، وتناولت أغراضا متباينة، أو خذ من كلام من شئت من البلغاء بضعة أحاديث كذلك، وحاول أن تجيء بها سردا لتجعل منها حديثا واحدا من غير أن تزيد بينها شيئا، أو تنقص شيئا، ثم انظر: كيف تتناكر معانيها وتتنافر مبانيها في الأسماع والأفهام ! وكيف يبدو عليها من الترقيع والتلفيق والمفارقة مالا يبدو وعلى القول الواحد المسترسل ! "[3].

إنك لتتعجب حين ترى تأليف هذا القرآن سورة سورة، وقطعة قطعة، وآية آية، ذلك أن الذي أنزل عليه القرآن لم يتربص بترتيب نجومه حتى كملت نزولا، بل يتريث بتأليف سورة واحدة منه حتى كملت نزولا، بل لم يتريث بتأليف سورة واحدة منه حتى تمت فصولها وآياته وكل جزء منها، وكل نزول، بل كان كلما ألقيت إليه أية أو آيات أمر بوضعها من فوره في مكان مرتب من

1- محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن الكريم، مكتبة الفنون والآداب، القاهرة، ص122.

2- المرجع نفسه، ص 123.

3- المرجع السابق، ص 123.

سورة معينة، على حين أن هذه الآيات والسور لم تتخذ في دورها التنزيلي سبيلها الذي اتبعته في وضعها الترتيبي، فكم من سورة نزلت جميعا أو شتاتا في الفترات بين النجوم من سورة أخرى، وكم من آية في السورة الواحدة تقدمت فيها نزولا وتأخرت ترتيبا، وكم من آية على عكس ذلك.

ومع ذلك إنك لتقرأ السورة من القرآن سواء كانت طويلة أم قصيرة فلن تستطيع أن تعرف إن كانت نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى، ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة واحدة، حتى يحدثك تاريخ القرآن أنها كلّها أو جلها قد نولت نجوما.

إن سور القرآن، " لو تدبرت، بنية متماسكة، قد بنيت من المقاصد الكلية، على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول، قد تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد، قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحسّ بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق "[1].

إن المعاني في السورة تترابط وتتناسق كما تتناسق الحجرات في البنيان، بل إنها تتلاحم كما تتلاحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما، كما يلتقي العظمان عند المفصل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب، ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضا خاصا، كما يأخذ الجسم قواما واحدا، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع غرض اختلاف وظائفه العضوية. وصدق الله العظيم إذ يقول: چچ چ چڇ
ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈچ[2].

السور القرآنية والوحدة الموضوعية:

1- المرجع نفسه، ص 130.

2- النساء : 82.

هل كل سورة في القرآن تحمل موضوعا واحدا؟ أو تتعدد فيها الموضوعات والأفكار المختلفة؟ وهل في تعدد موضوعاتها يوجد تناقض ما، أو اختلاف ما، أو تضارب وما شاكل ذلك؟

إن الصورة المخيمة على كل سور القرآن سواءً كانت طويلة أم قصيرة هي هيمنة موضوع واحد، وتحته مواضيع شتى خادمة له، ومن يتأمل أيّ سورة في القرآن يجدها متكاملة ومتناسقة ومتوازنة لا تعارض بين أجزائها، ولا إشكال في أفكارها، ولا تباين بين عناصرها. ولعلنا إذا رجعنا إلى تاريخ التفسير والمفسرين، فإننا لا نجد من أبرز الوحدة الموضوعية في سور القرآن إلا في العصر الحديث، لما ظهر سيد قطب، إذ بنى تفسيره "في ظلال القرآن" على أساس هذه الفكرة، التي انطلق منها في تفسير كل سورة، مبرزا أهمية الفكرة الموضوعاتية التي تلتئم منها السورة، وتلتقي عندها كل أجزائها، والذين سبقوا سيد قطب من المفسرين، منها من لاحظها، ومنها من لم يلحظها، ومنهم من ذهب إلى القول بها، ومنهم من لم يسلم بوجودها، ولكن سيد قطب طبقها في تفسيره الظلال أروع تطبيق وأعمقه، فهو يؤكد على هذه الوحدة المحورية التي تخضع لها كل سورة في القرآن.

ثم تراه يأخذ بأيدينا برفق ولين على وجه الانتقال من موضوع إلى موضوع، وسبب انتباه سيد قطب إلى هذه الوحدة الموضوعية في سور القرآن كله، هو اعتقاده أن مجال البناء الأصلي في القرآن هو بناء الفكر والعقيدة، وأن سلوك الإنسان وتصرفاته العملية هي النتيجة الطبيعية لإحكام الجانب العقيدي والفكري، بحيث ينطلق في كل أمر بما توجبه العقيدة والفكر، ولذلك لا نكاد نجد أحدا من المفسرين يبتدئ تفسيره بمقدمات مطولة تعريفا بالسورة سوى سيد قطب، حتى إنك وأنت تقرآ الظلال تفهم السورة كاملة من مقدماتها من خلال الشروحات والتفصيلات وكثرة التعليقات التي تقرؤها في مقدمة كل سورة من الظلال.

ثانيا: الآية:

تعريف الآية:

الآية تطلق في اللغة عدة معان، منها المعجزة، والجماعة، والعلامة الظاهرة، والعبرة، وتجمع على آي وآيات، وآياء. أما الآية في الاصطلاح أو في القرآن الكريم، فهي عبارة عن

طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وعما بعدها، لها مبدأ ومنقطع وهي مندرجة في سورة. وتعرف توقيفا على الأرجح.

وسميت الآية في القرآن آية لأنها علامة لانقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصاله، أي هي بائنة من أختها ومنفردة، وقد سمية آية لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه.

وفي الآيات الطويل والقصير، وأقصرها كلمة واحدة، كقوله تعالى: "والفجر"، "والضحى"، "والعصر"، "مدهامتان"، وأطول آية في كتاب الله آية المداينة في سورة البقرة وهي الآية 282 وتقع في حوالي صفحة كاملة، وعدد آيات القرآن ستة آلاف ومائتا آية [1].

ترتيب الآيات والسور:

1- ترتيب الآيات: أما ترتيب الآيات في فبالإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي، لا شبهة في ذلك، كما يقول السيوطي [2].

وقد قال زيد بن ثابت في الحديث الذي أخرجه البخاري: "كنا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع".

وعن العباس في الحديث الذي أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم. قال: "قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى "الأنفال" وهي من المثاني إلى "براءة"، وهي من المئين، فقرنتهم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر "بسم الله الرحمن الرحيم " ووضعتموها في السبع الطوال؟ فقال عثمان: كان رسول الله تنزل عليه السورة ذات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا من يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا، وكانت قصّتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، فقبض رسول الله (ص) ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر "بسم الله الرحمن الرحيم" ووضعنها في السبع الطوال".

1- علوم القرآن: عدنان محمد زرزور ص 104.

2- الإتقان للسيوطي، ج1، ص 104 وكذلك البرهان للزركشي ج1، ص 256.

وأخرج الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالسا عند رسول الله (ص) إذ شخص ببصره ثم صوبه، ثم قال: "أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة: " إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ".

ولقد كان النبي (ص) يقرأ في الصلاة سورًا عديدةً على مسمع من الصحابة مرتبة على نحو وجودها في الرقاع، وفي المصاحف بعد ذلك كقراءة لسورة الروم في صلاة الفجر، وسورة الإنسان في صبح يوم الجمعة، وقراءته سورة الجمعة والمنافقين أو سورة الأعلى والغاشية في صلاة الجمعة، وروى الغمام مسلم من حديث حذيفة قال: " صليت مع رسول الله ذات ليلة فافتتح البقرة فقلت يركع عند المائة ثم مضى فقلت: يصلي بها ركعة، فمضى ثم افتتح النساء فقرأها... الحديث ".

وهناك أحاديث في فضائل السورة وأحاديث أخرى في تحديد بعض الآيات من بعض السور، كخواتيم البقرة، أو العشر الأوائل من سورة الكهف، أو العشر الأواخر منها، مما يدل على تأليفها على هذا النحو.

إن موضوع التوقيف في ترتيب الآيات مما لا يتصوّر فيه خلاف، ولأن مسألة النظم القرآني التي تشكل أبرز دلائل الإعجاز في القرآن تعود في أبرز وجوهها إلى ذلك الترتيب، مما يدل على أنه من عمل الوحي يقينا "[1].

2- ترتيب السور:

أما ترتيب السور في المصحف على ما هو عليه، فقد ذهب جمهور العلماء إلى أنه توقيفي كترتيب الآيات سواءً بسوء، قال أبو جعفر النحاس المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله (ص) لحديث واثلة بن الأسقع، قال: قال رسول الله (ص) أعطيت الإنجيل المثاني، وفضّلت بالمفصل، قال أبو جعفر: " وهذا الحديث يدل أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي (ص)، وأنه من ذلك الوقت، وإنما جمع في المصحف على شيء واحد "[2].

1- علوم القرآن: محمد زرزور، ص 106.

2- الإتقان للسوطي، ج1، ص 108.

وروى البخاري عن ابن مسعود أنه (ص) قال في سور "الإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء " أنهن من العتاق الأول، وهي من تلادي فذكرها نسقا كما استقر ترتيبها "[1].

" ويؤكد أصحاب هذا الرأي ما ذهبوا إليه بأن المناسبات بين السور لا تقل عن النظم ووجه ارتباط الآيات بعضها ببعض في السورة الواحدة، وقد درج على بيان تلك المناسبات بعض المسفرين، وكانوا يطلبونها بين آخر السورة وأول السورة التي تليها، أو بين أول هذه السورة وجملة السورة السابقة في بعض الأحيان "[2].

قال الزركشي: " الترتيب وضع السور في المصحف أسباب تطلع على انه توقيفي صادر عن حكيم: أحدها بحسب الحروف، كما في الحواميم، وثانيها الموافقة أول السورة لآخر ما قبلها، كآخر الحمد في المعنى وأول البقرة. وثالثها للوزن في اللفظ كآخر " تبت " وأول الإخلاص، ورابعها المشابهة جملة السورة لجملة أخرى مثل " والضحى " و " ألو نشرح "[3].

وقال ابن الأنباري: " اتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي (ص) فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن [4].

والذي يبدو من مجموع الروايات والآراء حول هذا الموضوع أن أكثر سور القرآن الكريم كانت مرتبة على هذا النحو في زمن النبي (ص)، وأن العدد الأقل أو عددا قليلا لعله لا يتعدى سورتين أو ثلاث أو بضع سور على الأكثر قد رتب على يد الصحابة، قال البيهقي: "كان القرآن على عهد النبي (ص) مرتبا سوره وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة لحديث عثمان السابق " وذهب ابن عطية إلى أن كثيرا من السور كان قد علم بترتيبها في حياته (ص) كالسبع الطوال، والحواميم، والمفصّل، وأن ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فوض الأمر فيه إلى

1- انظر علوم القرآن، محمد زرزور، ص 106.

2- المرجع السابق: ص 106.

3- البرهان، ج1، ص 260.

4- علوم القرآن، ص 107.

الأمة بعده. قال أبو جعفر: " الآثار تشهد بأكثر مما نصّ عليه ابن عطية ويبقى منها قليل يمكن أن يجري فيه الخلاف "[1].

ومهما يكن من أمر فإن هذا الترتيب الذي نجده الآن في المصاحف تم في الصدر الأول من الإسلام، ومضت الأمة على قبوله والعمل به أربعة عشر قرنا من الزمان، حتى كان العمل به والوقوف عنده لازما لا يجوز التحول عنه أو المصير إلى غيره، مهما قيل في مستنده أتوقيف هو أم اجتهاد "[2].

ثالثا – اللفظة :

لم يخرج القرآن عن معهود العرب في تعاملاتهم اللغوية، فمن حروفهم ركبت كلماته، ومن كلماتهم ألفت جمله وآياته، وعلى مناهجهم في التأليف جاء تأليفه، فأي جديد في مفردات القرآن لم تعرفه العرب من طرائقها، ولم تأخذ به في مذاهبها، حتى نقول : إنه قد جاءهم بما فوق طاقتهم اللغوية ؟

أما أن القرآن لم يخرج في لغته عن سنن العرب في كلامهم إفرادا وتركيبا، فذلك في جملته حق لا ريب فيه، ولكن أهل اللغة الواحدة يؤدون الغرض الواحد على طرائق شتى يتفاوت حظها في الحسن والقبول. وما من كلمة من كلامهم، ولا وضع من أوضاعهم بخارج عن مواد اللغة وقواعدها في الجملة، ولكنه حسن الاختيار في تلك المواد والأوضاع قد يعلو بالكلام حتى يسترعي سمعك، ويثلج صدرك، ويملك قلبك، وسوء الاختيار في شيء من ذلك قد ينزل به حتى تمجه أذنك، ويغشى منه نفسك، وينفر منه طبعك.

ذلك أن اللغة فيها العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، وفيها العبارة والإشارة، والفحوى والإيماء، وفيها الحقيقة والمجاز.

ومن كل هذه المسالك ينفذ الناس إلى أغراضهم، غير ناكبين بوضع منها عن أوضاع اللغة جملة، بل هم في شعابها يتفرقون، وعند حدودها يلتقون.

1- المرجع نفسه، ص 108.

2- انظر: المرجع السابق، ص 107-108.

أما الجديد في لغة القرآن ومفرداته في كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد، وأمسها رحما بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق به، بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين.

بعض خصائص التركيب القرآني في اللفظة والعبارة:

إن لغة القرآن مادة صوتية، تبعد عن طراوة لغة أهل الحضر، وخشونة لغة أهل البادية، وتجمع -في تناسق حكيم- بين رقة الأولى وجزالة الثانية، ويتحقق السحر المنشود بفضل التوفيق الموسيقي البديع بينهما.

إنها ترتيب في مقاطع الكلمات في نظام أكثر تماسكا من النثر، وأقل نظما من الشعر، يتنوع في خلال الآية الواحدة ليجذب نشاط السامع، ويتجانس في آخر الآيات سجعا، لكي لا يختلّ الجرس العام للوقفات في كل سورة.

أما كلماته فمنتقاة من بين الكلمات المشهورة، دون أن تهبط إلى المستوى الدارج، ومختارة من الكلمات السامية التي لا توصف بالغريب إلا نادرا.

وتمتاز بالإيجاز العجيب في الكلام، إذ تعبر بأقل عدد من الكلمات عن أفكار كبيرة، يصعب التعبير عنها في العادة إلا بجمل مطولة.

ويضاف إلى هذا النقاء في التعبير، وهدا التركيز الشديد في المعنى - حيث لا تقابلنا كلمة زائدة بل اختصار معجز أحيانا- وضوح أخّاذ، بحيث إن رجل الشارع قليل الحظ من المعرفة يستطيع أن يقول لنفسه، لقد فهمت جيدا، ومع ذلك نجد العمق والمرونة، والإيحاء والإشعاع، في كل جانب مثل أوجه قطعة الماس البراقة.

إن كلا من النبيل والحقير، والسطحي والباحث الدؤوب، يلتقون على فهم القرآن، كأن كل عبارة فيه مفصلة تفصيلا بما يناسب عقلية كل منهم بحسب درجته في العلم والمعرفة.

إن كلمات القرآن بمعناها المجازي، سواء أكانت وصفا أم استدلالا أم سن قاعدة في القانون، أو في الأخلاق، تسعى بقوة وتجمع في نفس الوقت بين التعليم والإقناع والتأثير، وتمنح القلب والعقل نصيبه المنشود.

فالنص القرآني يمتاز بالهيبة والجلال والسمو، لا بالنسبة للأدب العربي بوجه عام، ولكن حتى بالنسبة لأحاديث الرسول (ص)، ذاتها المعروفة ببلاغتها الرفيعة، فجميع عبارات الرسول (ص) وأقواله يتميز عنها النص القرآني تمييزا صارخا، وكأنه شعاع من الشمس يمرّ خلال ضوء منبعث من نجفة من الشموع، إذ نلحظ في القرآن في الحال لهجة فريدة لا تنبعث من قلب رجل، وليست سوى نفحة ربانية.

الألفاظ غير العربية في القرآن :

لا خلاف أنه ليس في القرآن كلام مركب على غير أساليب العرب، وأن فيه أسماء أعلام لمن لسانه غير اللسان العربي، كإسرائيل، وجبرائيل، ونوح، ولوط، وإنما اختلفوا هل في القرآن ألفاظ غير أعلام مفردة من غير كلام العرب؟

فذهب القاضي إلى أنه لا يوجد ذلك فيه، وكذلك نقل عن أبي عبيدة، وادعى أن ما وجد فيه من الألفاظ المعربة مما اتفقت فيه اللغات. وبحث أهل العلم عن أصول أوزان كلام العرب، وردوا هذه الأسماء إليها على الطريقة النحوية، وذهب الشافعي إلى وجودها فيه [1].

قال الشافعي: "ولعل من قال: إن في القرآن غير لسان العرب، ذهب إلى أن شيئا من القرآن خاصا بجهله بعض العرب، ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا، ولا يحيط بجميع علمه إنسان غير بني، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامة أهل العلم، كالعلم بالسنة عند أهل الفقه، لا نعلم رجلا جمعها فلم يذهب منها شيء عليه " [2].

إلا أن الشوكاني له رأي مخالف لما ذهب إليه الشافعي، فيقول :" والمراد بالمعرب ما كان موضوعا عند غير العرب، ثم استعملته العرب في ذلك المعنى كإسماعيل وإبراهيم ويعقوب ونحوها، ومثل هذا لا ينبغي أن يقع فيه خلاف، والعجب من نفاه، وقد حكى ابن الحاجب وشراح كتابه النفي بوجوده عن الأكثرين، ولم يتمسكوا بشيء سوى تجويز أن يكون ما وجد في القرآن من

1- التواتي بن التواتي، القراءات القرآنية وأثرها في النحو العربي والفقه الإسلامي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الرويبة-الجزائر، ص 52.

2- نقلا عن المرجع نفسه، ص 53.

المعرب مما اتفق فيه اللغتان العربية والعجمية، وما أبعد هذا التجويز، ولو كان يقوم بمثله الحجة في مواطن الخلاف لقال من شاء ما شاء بمجرد التجويز، وتطرق المبطلون إلى دفع الأدلة الصحيحة لمجرد الاحتمالات البعيدة. وقد أجمع أهل العربية على أن العجمة علة من العلل المانعة للصرف في كثير من الأسماء الموجودة في القرآن، فلو كان لذلك التجويز البعيد تأثير لما وقع منهم هذا الإجماع" [1].

وإننا نتساءل عن وجود ألفاظ وكلمات في القرآن أصلها غير اللغة العربية، مثل: السندس، والاستبرق، والمشكاة، والسجيل، والقسطاس، والتنور، والأباريق، والياقوت. إنها كلمات تنتمي إلى لغات أجنبية كالسريانية، والفارسية، والحبشية، والرومية، وغيرها من اللغات.

والإجابة عن هذا السؤال تمكن في أمرين :

1- بعض الألفاظ التي استوعبها القاموس العربي والرصيد اللغوي للعربي قبل نزول القرآن حتى صارت عربية بالتعريب، ووعاها العرب، وحين وردت في القرآن لم يستغربوا حلولها في التركيب القرآني، وعرفوا معناها ومغزاها، بعد أن ألفوا مبناها، مما يدل على رحابة اللغة العربية، واتساع صدرها لهضم بعض الكلمات الأعجمية.

2- بعض الألفاظ الأخرى، مثل (القسط، أليم) وحتى كلمة (بعير) قالوا إنها عبرية، وإذا سلمنا جدلا أن هذه الكلمات وجدت في لغة أخرى، فهل معنى هذا أن اللغة الأخرى هي الأصل ؟ ألا يمكن احتمال العكس، بأن تكون اللغة الأخرى هي الآخذة، وأن اللغة العربية هي المأخوذ منها؟ أو أن هذه الكلمات مشتركة بين لغات متعددة متقاربة كالعربية والعبرية ؟

والإمام الطبري في مقدمة تفسيره لا يسلم بوجود ألفاظ أجنبية في القرآن، ويناقش الذين يقولون : إن في القرآن بعض الكلمات الأعجمية، فيقول :" ليس معنى قول الأقدمين : إن كلمة كذا معناها كذا بلسان الحبش أو الفرس، إن الكلمة قطعا حبشية أو فارسية، وأن العرب استعملوها قبل نزول القرآن، إذ من المعلوم أن اللغات قد تشترك في بعض الكلمات، فإذا كانت هناك في لغة الحبش ولغة العرب، فلماذا نقول إنها حبشية ولا نقول إنها عربية؟ ما دام استعمال

1- نقلا عن المرجع السابق، ص 53.

الكلمة في اللغتين بمعنى واحد، ولفظ واحد، فمن ادعى نسبتها إلى لغة دون لغة كان مدعيا بغير دليل" [1].

ثم يقول :" إن الذين نسبوا هذه الكلمات إلى لغة الفرس أو الروم أو الحبش أو غيرها، لم ينفوا أنها عربية، فهم يشيرون فحسب إلى أنها موجودة في لغة الفرس، لأن من نسب شيئا من ذلك إلى من نسب إليه، لم ينف نسبته إياه إلى ما نسبه إليه أن يكون عربيا، ولا من قال منهم هو عربي، نفى ذلك أن يكون مستحقا النسبة إلى من هو من كلامه من سائر أجناس الأمم غيرها "[2].

إن القرآن لا يشتمل على كلمة واحدة غير عربية، بل كله عربي بدليل قوله تعالى ﭽ ڎ ڎ ڎ ڈ ڈ ژﭼ [3]، وقوله عز وجل ﭽڈ ۀ ۀ ﭼ[4]. فلو اشتمل القرآن على غير اللغة العربية لكان مخالفا لهذه الآيات، والقرآن يطلق على مجموعه وعلى جزء منه، فلو كان جزء غير عربي لما كان من القرآن.

أما الألفاظ المذكورة في القرآن من أصل لغات أخرى غير عربية، فقد عربت، أي استعملها العرب قبل نزول القرآن، فصارت من لغتهم. فالقرآن إذا اشتمل على ألفاظ معربة، لا على ألفاظ غير عربية، واللفظ المعرب عربي كاللفظ الذي وضعه العرب سواء بسواء.

1- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، دار المعرفة، بيروت، ط 4 ، ج1 ص 31.
2- المرجع نفسه، ج1 ص 31.
3- الزخرف : 03.
4- الشعراء : 195.

المحاضرة الخامسة:

القصة القرآنية:

أهدافها – خصائصها

القصة القرآنية:

تمهيد:

درس كثير من المحدثين القصة القرآنية، واختلفت دراساتهم لها، فمنهم من عالجها من زاوية العظمة الخالصة، ومنهم من درس الوجه البياني فيها، وهناك من أبرز الجانب التربوي والإصلاحي، مستهدفا تقويم الأخلاق، وتزكية الأنفس، وتطهير المجتمع من براثن الظلم والفساد، وقد عالجها فريق من المحدثين من منظور الرواية الفنية الحديثة، فرأوا أن فيها خلقا فنيا من منظور الرواية الفنية الحديثة، فرأوا أن فيها خلقا فنيا بالمصطلح الروائي.

ومن الذين عالجوا القصة القرآنية معالجة تربوية الأستاذ أحمد الجبالى، والأستاذ إبراهيم أبو الخشب، والأستاذ عبد الحميد جودة السحار، والأستاذ سيد قطب، والأستاذ أحمد برانق، وغيرهم ممن اهتم بالقصص القرآني، خاصة في الآونة الأخيرة إذ ظهرت عديد المؤلفات تتناول ما جاء في القرآن من قصص الأنبياء والرسل وأقوامهم.

واهتمت هذه المؤلفات بالجانب التربوي من القصة القرآنية، فأبرزت جوانب إصلاح الفرد والمجتمع، وشرحت المواقف الخلقية في القصص القرآني، وركزت على مواقف الأنبياء والرسل في مواجهة المشاق ومكائد التي أحيكت ضدهم من جهة أكابر القوم وسادتهم من أجل التخلص منهم، أو نفيهم، أو اغتيالهم، فكانت هذه المواقف فيما صورته من مغالبة الأنبياء لأقوامهم. وما بذلوه للتغلب عليهم وعلى الدسائس والمؤامرات مثلا حيا للداعية المخلص لدعوته.

وتركيز هؤلاء الكتاب والمؤلفين والنقاد على الجانب التربوي والإصلاحي جعلهم يجنحون إلى اليسارة والوضوح والسهولة في العبارة، والتحليل والشرح، ويبتعدون عن الاتجاه النقدي الذي يهتم بأسس وقواعد البناء الفني للقصة القرآنية.

وأما الفريق الذي سار في الاتجاه الفني، فقد أدخل مقاييس الخلق الفني على حقائق النص القرآني.

واستند أغلب هؤلاء إلى آراء المستشرقين وما زعموه من وجود أساطير في القرآن والطابع الذي يغلب على مؤلفاتهم، عدم وضوح الدلالة، بل غموضها واضطرابها وضبابيتها، لأنها تفترض على النص القرآني ما لا ينسجم مع أسلوبه وتعبيره وموضوعه. ومن هؤلاء الدكتور محمد أحمد خلف الله، وكتابه "الفن القصصي في القرآن الكريم": منهم الدكتور غالي شكري، ومنهم أيضا: الأستاذ التهامي نقره وكتابه "سيكولوجية القصة في القرآن" وكذلك الأستاذ نجيب الكيلاني.

ولم يفرق هؤلاء الكتاب بين مضرب المثل في القرآن، وبين القصة الفنية في القرآن، وفي الحق إن هناك فرقا كبيرا بين المثل الوعظي أو مضرب المثل، والقصة الفنية في القصص القرآني.

حيث تدور الأولى في حيز الوعظ والإرشاد، والتوجيه والتنبيه، والبشارة والنذارة بينما تدور الثانية في فلك المثل الناضج لبناء قصة فنية على نحو ما تسعى نظرية الرواية الحديثة إلى الوصول إليه. في حين أن القصة القرآنية لا تخرج عن مجالها الأصلي وهو مواكبة الدعوة الإسلامية ومناصرتها بضرب الأمثال ولفت الانتباه إلى ما كان يحدث في الأمم السابقة والقياس عليها، فالقصص القرآني بعامة يحمل مواقف متشابهة مع مواقف أهل مكة من دعوة الرسل أقوامهم إلى

الله، مثل: مواقف قوم نوح، وقوم صالح، وقوم موسى مع فرعون، وقوم عيسى وغيرهم من أقوام الرسل عليهم السلام.

والذي نعتقده ونوقن به أن العظمة المنبثة في حنايا تلك القصص قد تجاوزت أيامها تلك إلى أيام النبي (ص)، ثم إلى أيامنا هذه، بل إلى أيام القرون القادمة.

لأن عمومية الموعظة في القرآن جوهر ثابت ومستمر، وموصول بكل زمان، لأن القرآن كتاب الإنسانية جمعاء قال تعالى: **چۀ ہ ہ ۓ ۓ ھ ھچ**[1].

ولذلك كانت الأمثال القصصية هذه تصدر بقوله تعالى: **چ ۈ ۈ ۋچ**[2]، أو كقوله تعالى: **چ □ □ ى ى چ**[3]، أو كقوله تعالى: " ولذلك **چ ٻ ٻچ**[4]، أو كقوله: **چۋ ۋ ۇ ۆچ**[5].

معنى القصة القرآنية:

القصص تتبع الأثر يقال: قصصت أثره: أي تتبعه، قال تعالى: **چڄ ڃ ڃ ڃچ** [6]، أي رجعا يقصان الأثر الذي جاءا به، وعلى لسان موسى: **چ ھ ے ے ۓچ** [7] أي تتبعي أثره حتى تنظري من يأخذه والقصص كذلك: الأخبار المتبعة، قال تعالى: **چ ٱ ٻ ٻ ٻ ٻچ** [8] وقال: **چ□ □ □ □ □ □ □ □ □چ**[9] والقصة: الأمر والخبر، والشأن، والحال.

1- سبأ : 28.

2- الكهف : 32.

3- النازعات : 15.

4- طه : 99.

5- الأعراف : 65.

6- الكهف : 64.

7- القصص : 11

8- آل عمران : 62.

9- يوسف : 111

وقصص القرآن: إخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة والحوادث الواقعة.(1)

الواقعة.(1) وهناك من فسّر القصص بالبيان في قوله تعالى: ﭽﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗﭼ(2)، أي نبين نبين لك أحسن البيان.(3)

"إذا أخذنا في حسباننا بأن القصة أداة يبين بها القاص عن غرض أو غاية في نفسه، أو منهج ينتهجه للناس لكي يخلصهم من ظلم أو يرفع حيفا، أو يحارب عادة فاسدة أو سلوكا سيئا، فإننا نجد هذا المعنى أو نحوه يرسو في القصة الفنية في القرآن الكريم.

وإن الله تعالى وصف قصة يوسف بأحسن القصص، لأنها عبدت للناس طرقا، وشقت لهم مناهج يسلكونها في حياتهم: منها ما يتعلق بالتربية، ومنها ما يتعلق بالاقتصاد، ومنها ما يتعلق بحسن التصرف في الأزمات، ومنها ما يتعلق بمفهوم العفة كيف تكون، ومنها الكثير والكثير من أمور الحياة "(4).

أهداف القصة القرآنية:

سأذكر منها مثالين اثنين تنبين من خلالهما الغاية من قصص القرآن.

المثال الأول: ما ذكر في سورة الكهف من قصة الرجلين قال تعالى: ﭽ ۈ ۇ ۆ ۆ ۉ ې

ې □

ى ى ي ي □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ٱ ب ب ٻ ٻ پ پ ڀ

ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ

ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڄ ڄ ڄ ڄ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ

ڑ ڑ ک ک کک گ گ گ گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ

ۀ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ﮢ ﮣ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ۇ ۇ ۋ ۋ ۋ ۋ ۋ ۋ

1- مالك بوعمرة سونه، قبسات من علوم القرآن، دار الإمام مالك، البليدة - الجزائر، ط1، 2018، ص67.

2- يوسف : 3.

3- خالد أحمد أبو الجندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، دار الشهاب، باتنة - الجزائر، ص 130.

4- المرجع السابق، ص 130.

ۋ ۅ ۅ ۈ ۆ ې ې ۉ ۉ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □
□ □ □ □ □ □ □ □ ى ى چ[1].

يرى بعض المفسرين أن الرجلين أخوان من بني إسرائيل، ويرى البعض الآخر، أن هذا مثلا ضربه الله للناس، الغاية منه توضيح نهاية كل مستكبر، ومتعالٍ، وناس نفسه، غارق في التيه والغرور، مستأثر نفسه بما أعطاه الله تعالى من النعم والآراء، ونسي حقوق الفقراء والضعفاء حتى عصى ربه، وحاد عن أمره، ففاجأه الله بقوته وعظمته، فأفناه بحسبان، أو أرسل عليه كسفا من السماء، أو أصبح تعيسا تذروه الرياح.

المثال الثاني: ما ذكر في سورة يس من الرسل الذين أرسلهم الله لأصحاب القرية، قال تعالى: چ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ
ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ
ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ
ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ
ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ □ □ □ □
□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ □ □
□ □ □ □ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ
ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ
ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ چ[2].

هناك من المفسرين من أعدها قصة واقعية ووقعت أحداثها في إحدى قرى بني إسرائيل، وهناك من جعلها تمثيلية سيقت مساق المثل قصد الموعظة والتحذير.

من خلال هذين المثالين أن الحكمة من القصص القرآني، هو التربية النفسية والسلوكية الفردية والاجتماعية، وغرس قسم الفضيلة والخلق، والتسامي في عالم المثل الكبرى، والحياة الروحية التي تتعالى عن القيم المادية التي فسدت بسببها الحياة.

وإننا نستطيع أن نستخلص من ملامح هاتين القصتين مجموعة من الحكم والغايات تسعة القصة القرآنية لتحقيقها.

1- الكهف : 32-44.

2- يس : 13-32.

1- إشاعة المعاني الدينية والإنسانية في الحياة لبناء نموذج إنساني يقوم على الأخلاق والآداب ومراعاة حدود التربية والتهذيب وكل ذلك يمكن تحقيقه من خلال الحوار والجدل القائم بين أهل الحق وأصحاب الباطل، ومن خلال الأدلة والحجج التي ساقها كل فريق، ومن خلال النهايات المحتومة الناتجة عن الأفعال، وكل ذلك ورد بأسلوب شيق ومؤثر، ومن هنا فإن القصص القرآني ضرب من ضروب الأدب الرفيع، والخلق العالي. وصدق الله العظيم إذ يقول: چ□ □ □ □ □ □ □ □ □چ[1].

2- عندما نمعن النظر في المثال الثاني " أصحاب القرية " نلاحظ أن القصص القرآني لا يركز على السرد التاريخي، لا يهتم بتعميق الإحساس بالشعور القومي، أو التنازع بين أصحاب المذاهب والفلسفات والسياسات والعصبيات أو الكتل المتصارعة على السلطة، وإنما كان القصص القرآني يهتم فقط بمواقف أصحاب القرية من الرسل، لأن يتماثل ويتطابق مع مواقف أهل مكة مع النبي (ص)، ومن ثم حرص القصص القرآني على إبراز عاقبة المستهزئين بالرسل وثواب المطيعين لهم كما ورد في هذا المثال الذي سبقناه هنا، ومثله في القرآن كثير. إن استعراض هذه المواقف فيها ردع وتحذير لأهل مكة، وتذكير لهم بما وقع لأمثالهم المكذبين عساهم يكفون عن إيذاء النبي (ص).

3- ومن خلال النظر في هذا المثال أيضا أي المثال الثاني، سنرى بوضوح جلاء كيف كان القرآن يسلي النبي (ص)، ويثبت فؤاده ويشد عضده، بما كان يحدثه عن عاقبة المكذبين، ونجاة الرسل، وانتصارهم في الأخير.

إننا نتبين من خلال قصص كثيرة في القرآن أن الله تعالى ينصر رسله في نهاية المطاف، ويهلك على أيديهم الجبابرة والطغاة، والظلمة، والمعاندين، فمثلا هذا التقرير الذي في سورة غافر

1- يوسف : 111

عقب الحديث عن نجاة موسى من فرعون، وإهلاك فرعون وقومه: ﭽ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭼ[1]. وبهذا فإن الله تعالى يغرس الثقة والطمأنينة في نفس النبي محمد (ص) وأصحابه، لأنه وعد أولياءه بالنصر المبين، ووعد أيضا بخذل الباطل وأهله، وبرهن لهم على ذلك بما وقع من أحداث في التاريخ، وقد قال لهم مبينا الحكمة من ذكر هذه القصص: ﭽ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ[2].

وقال مخاطبا نبيه بعد أن ذكر له ما تعرض له الأنبياء والرسل من أذى قومهم: ﭽ □ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﭼ[3].

4- ومن الحكم البارزة في القصص القرآني، مجادلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وقرعهم بالحجة، وفضح تحريفاتهم، وإظهار ما كتموه من كتبهم، وخاصة أن اليهود كانوا يجاورون النبي (ص) في المدينة، وكانوا كل ما ينزل من القرآن وهو يذكر تاريخهم ورسلهم وكتبهم، مع العلم أن النبي محمد (ص) كان أميا ولم يكن فيلسوفا ولا مؤرخا، وهذا يعني أن الأخبار الصحيحة كان النبي يتلقاها من الله عن طريق الوحي، ولو كان ما ذكره ليس صحيحا ما سكتوا أبد الدهر لإبطال دعوة النبي محمد (ص)، فسكوتهم وعدم معارضته في شيء مما ذكره عن تاريخهم ورسلهم دليل صدقه وادعائه للنبوة، وفي هذه القصص تحد لأهل الكتاب، لأن سكوتهم شهادة منهم على صحة ما ذكر ولذلك قال الله تعالى وهو يتحدّ أهل الكتاب بهذه المعلومات التي لا تتوفر مصادرها لدى النبي (ص)، فمن أين أتى بها إذا ؟: ﭽ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ □ □ □ □ □ □ ﭼ[4].

1- غافر : 51.

2- هود : 120.

3- الأحقاف : 35.

4- آل عمران : 44 .

ويقول أيضا: چ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩچ[1]. ومن خلال هذه الأخبار ثبتت نبوته وصدقه، لأنه نشأ أميّا لم يخالط أهل الملل والنحل والأديان، ولا تلقى عنه شيئا يذكر، ومع ذلك ذكر لهم ما يعلمونه ويخفونه من تراثهم الديني، بل كانوا يمتحنونه بما يعلمونه مغيبا عنه فيسألونه بواسطة أهل مكة، عن أهل الكهف والروح وذي القرنين، فيجيبهم بدقة وتفصيل مع أنهم كانوا يخفون تلك العلوم ولا يطلعون أحد عليها، وهو ما يثبت تلقى تلك من لدن حكيم خبير.

5- إن هذا القصص الذي جاء في القرآن يمثل تاريخا لسير الدعوة الدينية في الحياة، وكيف خطت مجراها بين الناس منذ فجر التاريخ، وما هي العقبات التي اعترضها؟ وكيف قابلتها الشعوب والأمم، بالتصديق أم التكذيب؟ والحكمة المنشودة من ورائها هذا القصص المسترسل المكرر تقرؤها في قوله تعالى: چ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ى ى ي ي □ □ □چ[2].

6- القرآن كتاب الدعوة وتاريخها، وفي تضاعيف السرد التاريخي لأخبار الأولين يزداد عرض الدعوة وضوحا، ويستبين منهجها الذي تحدو البشرية إليه، والذي لا يختلف وإن اختلفت العصور، فالأنبياء جميعا شرحوا أصول العقيدة والخلق والمعاملة شرحا مفصلا، فياضا بالصدق، عامرا بالإخلاص.

إن الأنبياء جميعا فيما سجل القرآن من وصاياهم ونصائحهم لأممهم، لم يختلفوا في شيء، بل كان كلامهم منسجما ومنسقا، وهو مما يدل على انه صادر من مشكاة واحدة، ومنساق إلى هد في واحد، ومن خلال الحوار الذي جرى بين الأنبياء وأقوامهم ظهرت حقيقة الدين الواحد بكل وضوح، ولعل هذا الحوار في حد ذاته شرح مفصل لرسالة النبي محمد (ص)

1- هود : 49.

2- يوسف : 111.

ورد على لسان إخوانه الأنبياء، ليبين لهم أن محمدا ليس بدعا من الرسل، وأنه لم يأت بشيء جديد يخالفهم به.

7- إن روح القصص القرآني هو احتواءه على جملة من سنن الله الكونية، يكون عليها قيام الأمم وقوتها وضعفها، وبقاؤها وفناؤها، ولذلك فإن هذا القصص القرآني يحمل قوانين اجتماعية ثابتة ، تصدق كل الأمم في جميع العصور، وبالتالي فإن دراسة القصص القرآني هو الاطلاع على منهج إلهي أشبه ما يكون بدراسة القوانين الكونية أو العلوم المادية الدقيقة، التي ترتبط فيها الأسباب بنتائجها.

فعندما ننعم النظر في القصص القرآني نجد أنفسنا أمام مقررات إلهية تحدد قيام الرفعة والهبوط، والبقاء، والزوال، فالقصص القرآني يعرض علينا سننا كونية لا تتخلف، طبقت على الأولين، وستطبق على الآخرين بنفس الطريقة والكيفية، وإن اختلفت الصور، نظرا لتغيير ملامح الحياة في كل طور من أطوار الحضارة.

خصائص القصة القرآنية:

1- القرآن ليس كتاب تاريخ أو دراسة حول سير أبطال معينين ذكروا في التاريخ، بل القرآن كتاب هداية وموعظة وإعجاز، ومن أجل ذلك خط لنفسه منهجا في عرض هذه القصص لتنسجم مع أهدافه وغاياته، فلم يهتم بذكر الأشخاص، أو البيئات، أو الأزمنة، لأن هدفه ضرب الأمثال، ولذلك جرّد جميع القصص من أزمنتها وبيئاتها لأنها نماذج إنسانية متكررة في جميع الأعصر، فهي مرتبطة بعمومية السلوك الإنساني، لا بخصوصية بيئات معينة، ولذلك فإن القصة القرآنية لا تذكر إلا ما فيه عبرة يقتدى بها، أو نموذجا يجب أن يحتذى، فجميع قصص القرآن قواعد سلوكية، وأنماط إنسانية مستقيمة ومنضبطة، تلوح منها خصائص حياة إنسانية متكاملة وعادلة ومحكمة.

"فالأشخاص في القصة القرآنية رموز معبرة عن مواقف ومعان ودلالات، فلا تذكر الشخصية إلا تعبيرا عن مقاصد معينة في القصة، فالقرآن لا يقصد إيراد الشخصية بذاتها بقدر ما يركز على الحدث المراد وأهدافه التي سيق من أجلها، كما أن أحداثا كثيرة في القصة يضرب عن ذكرها القرآن صفحا إذا لم تكن خادمة للغرض المذكور، ولهذا جاءت القصة في القرآن موجزة بآيات قليلة، وبإشارات واضحة "[1]

2- إن من خصائص القصة في القرآن كما هو واضح، تكرارها في عدة مواضع من القرآن، وفي سور شتى "ولكن هذا التكرار لا يتناول القصة كلها، غالبا إنما هو تكرار لبعض حلقاتها، ومعظمه إشارات سريعة لوضع العبرة فيها، أما جسم القصة كله فلا يكرر إلا نادرا، ولمناسبات خاصة في السياق.

وحين يقرأ الإنسان هذه الحلقات المكررة ملاحظا السياق الذي وردت فيه، يجدها مناسبة لهذا السياق تماما، في اختيار الحلقة التي تعرض هنا أو هناك، وفي طريقة عرضها كذلك"[2]، فتارة تعرض القصة من أولها، ومرة من وسطها، ومرة من آخرها، وتارة تعرض كاملة، وتارة يكتفي بعرض بعض حلقاتها، وتارة تتوسط بين هذا وذاك، حسبما تكمن العبرة في هذا الجزء أو ذاك.[3]

3- تميزت القصة القرآنية -أيضا- بمزج التوجيهات الدينية، قبلها وبعدها، وفي ثناياها كذلك. والذي يتتبع القصص القرآني يجب عقب كل قصة تعقيبا دينيا يناسب، العبرة فيها، أو ما يذكر من التوجيهات في ثناياها. ومن ذلك مثلا قوله تعالى في قصة سليمان مع بلقيس: ﭽ ﭑ ﭒ
ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ

1- مالك بوعمرة سونة، قبسات من علوم القرآن، ص 69.

2- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 119.

3- انظر المرجع نفسه، من ص 119 إلى ص 124.

ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ
ﮑ ﮒ ﮓ ﮔﭼ[1].

فانظر كيف ساق الله موعظة هامة على لسان الهدهد في ثنايا هذه القصة، ولنا مثل آخر من قصة يوسف وهو في السجن يفسر الرؤيا لصاحبيه، فقال تعالى ﭽ
ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ
ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮﭼ[2]. وهكذا الأيسير سياق القصة إلا في ثناياه تلك التوجيهات، زيادة على المغزى الذي تؤدي إليه بحوادثها.

4- تتميز القصة القرآنية -أيضا- بفنيتها في تنوع الإخراج، فمرة يذكر ملخص للقصة يسبقها، ثم تعرض التفصيلات بعد ذلك من بدئها إلى نهايتها، وذلك كطريقة قصة أصحاب الكهف. فهي تبدأ هكذا: ﭽﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊﭼ[3].

ذلك ملخص للقصة، ثم تتبعه تفصيلات تشاورهم قبل دخولهم الكهف، وحالتهم بعد دخوله، ونومهم، ويقظتهم، وإرسالهم واحدا منهم يشتري لهم طعاما، وكشفه في المدينة، وعودته وموتهم، وبناء المعبد عليهم، واختلاف القوم فيهم،...الخ، فكأن هذا التلخيص كان مقدمة مشوقة للتفصيلات.

ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها، ثم تبدأ القصة بعد ذلك من أولها وتسير بتفصيل خطواتها، وذلك كقصة موسى في سورة القصص، وهي تبدأ هكذا: ﭽ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ
ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ
ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ

1- النمل : 23-26.

2- يوسف : 37-38.

3- الكهف : 9-12.

ﭘ ﭙ ﭚ ﭛﭜ[1]. ثم يمضي في تفصيلات قصة موسى، مولده ونشأته، ورضاعه، وكبره، وقتله، المصري وخروجه... فكأن هذه المقدمة التي تكشف الغاية من القصة كانت تمهيدا مشوقا لمعرفة الطريقة التي تتحقق بها الغاية المرسومة المعلومة.

5- وكذلك تتميز القصة القرآنية بتنوع طريقة المفاجأة، فمرة يكتم سر المفاجأة عن البطل وعن النظارة، حتى يكشف لهم معا في آن واحد، مثال ذلك قصة موسى مع العبد الصالح العالم في سورة الكهف راجع الآيات من 60 إلى 82.

ومرة يكشف السر للنظارة، ويترك أبطال القصة عنه في عملية، وهؤلاء يتصرفون وهم جاهلون بالسر، وأولئك يشاهدون تصرفاتهم عالمين، وأغلب ما يكون ذلك في معرض السخرية، ليشترك النظارة فيها منذ أول لحظة، حيث تتاح لهم السخرية، من تصرفات الممثلين.

مثل قصة أصحاب الجنة (البستان) في سورة "القلم" الذين أرادوا حرمان الفقراء من نصيبهم ﭼ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭﭼ[2]. وبينما نحن نعلم هذا، كان أصحاب الجنة يجهلونه: ﭼ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅﭼ[3].

وقد ظللنا نحن النظار نسخر منهم، وهم يتنادون، ويتخافتون، والجنة خاوية كالصريم، حتى انكشف لهم السر أخيرا، بعد أن شبعنا تهكما وسخرية: ﭼ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍﭼ[4]، وذلك جزاء من يحرم المساكين.

6- ومن خصائصها الفنية أنها لا تخاطب فئة معينة، بل تصلح لخطاب العامة والخاصة، وأن المحصول فيها كسائر الأبواب القرآنية الأخرى، فهي ليست عملا فنيا مستقلا في موضوعه

1- القصص : 1-6.

2- القلم : 17-19.

3- القلم : 21-25.

4- القلم : 26-27.

وطريقة عرضه، فالقصة القرآنية لا ترمي إلى أداء غرض فني مجرد، بل إلى غرض ديني يسعى إلى تهذيب الإنسان، وتعليمه، وتركيزه، ولذلك فهي متوجهة إلى كل الناس بمختلف طوائفهم ومستوياتهم. ولذلك فإن السمو الأدبي البارز، والرفعة، الفنية الحاصلة، لم تتشكل على حساب الغرض الديني الأكبر للقصة القرآنية، فهي موضوعة أساسا للتأمل والتدبر، وأخذ العبرة، من دروس وقعت في تاريخ الأمم السابقة.

فالقصص القرآني تاريخ ثابت، وأخبار سلفت، وحوادث وقعت، وأن الخيال أو الافتراض لا وجود له في وقائعها، ولا في أبطالها، وكأن القصة في القرآن جاءت لتؤكد معاني القرآني، فهي برهانه ودليله على إثبات وصحة ما دعا إليه، ولذلك تميز جميع القصص القرآني بالوضوح والصراحة وصدق الوقائع الحادثة، وتسجيل تلك الحقائق التاريخية دون اللجوء إلى التضخيم والخيال أو استخدام عنصر الأسطورة، ولذلك قال الله تعالى عن القرآن عامة: ﭽ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛﮜ ﮝ ں ں ڻﭼ[1]. ومعنى الآية أو القرآن مبرّأ من أن يلحقه خطأ أو باطل من جهة ما حدث به أو أمر به أو وعد به، أو من جهة ما دل على وقوعه سابقا أو من جهة ما أشار إلى وقوعه في ذلك العصر وحاضره، أو ما أنبأ بوقوعه في المستقبل. وإن البشرية إلى هذا اليوم لم تقف على أمر تاريخي أو حاضر أو مستقبل يخالف ما حدّث به القرآن، أو دل عليه، أو بشّر به.

1- فصلت : 42.

المحاضرة السادسة :

سياقات النص القرآني

أولا– المكي والمدني من القرآن الكريم :

I – أهميته :

قال أبو القسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري:" من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة ابتداء ووسطا وانتهاء، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك، ثم ما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي"[1].

---

1 - البرهان، ج1 ص 192. والإتقان، ج1 ص 12.

لقد جعل النيسابوري العلم بمعرفة المكي والمدني فريضة على كل من يعنى بتفسير كتاب الله، فعلى مفسر القرآن أن يعرف " ما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المجني في المكي، ثم ما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية. ثم ما نزل ليلا، وما نزل نهارا، وما نزل مشيّعا، وما نزل مفردا، ثم الآيات المدنيات في السور المكية، والآيات المكية في السور المدنية، ثم ما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة، ثم ما نزل مجملا، وما نزل مفسرا، وما نزل مرموزا، ثم اختلفوا فيه، فقال بعضهم: مكي، وبعضهم مدني. هذه خمسة وعشرون وجها من لم يعرفها ويميّز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى"[1].

II – المفهوم المصطلحي للمكي والمدني :

– **المفهوم الأول**: أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة. ويدخل في مكة ضواحيها كالمنزل على النبي (ص) بمنى، وعرفات والحديبية. ويدخل في المدينة ضواحيها أيضا كالمنزل عليه في بدر وأحد. وهذا التقسيم لوحظ فيه مكان النزول كما ترى. ولكن يردّ عليه أنه غير ضابط ولا حاصر، لأنه لا يشمل ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيهما، كقوله سبحانه وتعالى في سورة التوبة **چ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ڈ ڈ ڈ ڤ ڤ ڤڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃچ**[2]، فإنها نزلت بتبوك. وقوله عز وجل **چ ۋ ۋ ۉ ۉ ۋ ۋ ې ې ې ې** □ □ □ **چ**[3]، فإنها نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء.

ولا ريب أن عدم الضبط في التقسيم يترك واسطة لا تدخل فيما يذكر من الأقسام، وذلك عيب يخلّ بالمقصود الأول من التقسيم، وهو الضبط والحصر.

1- البرهان، ج1 ص 192.

2- التوبة : 42.

3- الزخرف : 45.

– **المفهوم الثاني**: أن المكي ما وقع خطابا لأهل مكة، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة، وعليه يحمل قول من قال : إن ما صدر في القرآن بلفظ «يا أيها الناس» فهو مكي، وما صدر بلفظ «يا أيها الذين آمنوا» فهو مدني، لأن الكفر كان غالبا على أهل مكة، فخوطبوا بـ«يا أيها الناس»، وكذلك «يا بني آدم» وإن كان غيرهم داخلا فيهم. ولآن الإيمان كان غالبا على المدينة، فخوطبوا بـ«يا أيها الذين آمنوا»، وإن كان غيرهم داخلا فيهم.

أخرج أبو عبيدة في فضائل القرآن عن ميمون بن مهران قال :" ما كان في القرآن «يا يا أيها الناس» أو « يا بني آدم » فإنه مكي، وما كان بـ«يا أيها الذين آمنوا» فإنه مدني"[1].

– **المفهوم الثالث**: وهو المشهور عند العلماء والباحثين في الدراسات القرآنية، ويقوم هذا المفهوم على التقسيم الزمني في معرفة المكي من المدني. فالمكي هو ما نزل قبل الهجرة إلى المدينة، وإن كان نزوله بغير مكة. والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله بمكة.

إن هذا التقسيم الذي يعتمد على زمن النزول سليم جدا، لأنه ضابط حاصر ومطرد لا يختلف باختلاف سابقيه، ولذلك اعتمده العلماء واشتهر بينهم. وعليه فإن الآية ﭽ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﭼ[2]، مدنية مع أنها نزلت بمكة يوم الجمعة بعرفة في حجة الوداع. وكذلك قوله تعالى ﭽ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﭼ[3]، مدنية وإن كان نزولها بمكة في جوف الكعبة مع الفتح الأعظم، ويمكن أن نقول مثل ذلك فيما نزل بأسفاره، كفاتحة سورة الأنفال، فإنها نزلت ببدر.

III– فائدة العلم بالمكي والمدني :

من فوائد العلم بالمكي والمدني ما يلي :

1– حسن أيوب، الحديث في علوم القرآن والحديث، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط 3 ، 2007، ص 24.

2 – المائدة : 03.

3– النساء : 58.

1- تمييز الناسخ من المنسوخ، فيما إذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم في موضوع واحد، وكان الحكم في هاتين الآيتين أو الآيات مخالفا للحكم في غيرها، ثم عرف أن بعضها مكي وبعضها مدني، فإنني نحكم بأن المدني منها ناسخ للمكي نظرا لتأخر المدني عن المكي.

2- معرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام، وذلك يترتب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية في تربية الشعوب والأفراد، ويستقبلك في هذا المبحث فروق بين المكي والمدني تلاحظ فيها جلال هذه الحكمة.

3- الثقة بوصول القرآن إلينا سالما من التغيير والتحريف، ويدل على ذلك اهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام حتى إنهم ليعرفون ويتناقلون ما نزل منه قبل الهجرة وما نزل بعدها، وما نزل بالحضر وما نزل بالسفر، وما نزل بالنهار وما نزل بالليل، وما نزل بالشتاء وما نزل بالصيف، إلى غير ذلك. فلا يعقل بعد هذا أن يغفلوا عنه حتى يطاله النقص والزيادة كما حصل مع الكتب السابقة.

IV- الخصائص العامة للقرآن المكي والمدني :

ترجع هذه الخصائص إلى أمور، بعضها لفظي أو أسلوبي أو موضوعي.

- الخصائص اللفظية والأسلوبية :

1- كل سورة فيها لفظ (كلاّ) فهي مكية.

2- كل سورة فيها حروف التهجي فهي مكية، ما عدا سورة البقرة وسورة آل عمران فهما مدنيتان.

3- كل سورة فيها «يا أيها الناس» أو «يا بني آدم» فهي مكية، أما السور التي فيها «يا أيها الذين آمنوا» فهي مدنية، وما عدا ذلك فقد ورد الخطاب بيا أيها الناس في سورة مدنية كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ من سورة البقرة وهي سورة مدنية، وكذلك ورد في سورة النساء وهي مدنية الاستهلال بـ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾. ومن الناحية الأخرى، فقد ورد في سورة الحج الخطاب بصيغة «يا أيها الذين آمنوا» وهي مكية، وذلك في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾.

4- السور ذات الآيات القصار القصار المفصلة مكية، والمفصل من القرآن هو السور ذات الآيات القصار التي تكثر فيها الفواصل بين آياتها، وهذه القاعدة أيضا فيها استثناء، فقد نزلت سورة النصر وهي من المفصل، ولكنها مدنية، لأنها آخر ما نزل من القرآن الكريم.

- الخصائص الموضوعية :

1- كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهي مكية، ويستثنى من ذلك سورة البقرة.

2- السور التي تحكي قصة آدم وإبليس مكية، سوى سورة البقرة.

3- السور التي تتضمن ذكر الحدود والفرائض مدنية.

4- كل سورة أمرت بالجهاد أو أذنت به وتحدثت عن أحكامه فهي مدنية.

5- كل سورة ذكرت المنافقين فهي مدنية، ما عدا سورة العنكبوت، فهي مكية، ما عدا آيات المنافقين التي ذكرت فيها فهي مدنية.

6- القرآن الذي نزل بمكة حمل على الشرك وسخر من المشركين وآلهتهم التي كانوا يعبدونها، ودعاهم إلى التأمل في الكون والاحتكام إلى الحس والعقل، وأكّد وحدانية الله، والبعث والجزاء، والثواب والعقاب.

7- حفل المكي بألوان التهديد والوعيد، وواجه جبروت الكفار والمشركين بآيات تنذرهم وتحذرهم من عاقبة كفرهم وطغيانهم، لقد خاطبهم بآيات تزلزل القلوب.

8- أظهر القرآن المكي لأهل مكة ما كانوا عليه من سيرة سيئة، من فعل المنكرات والموبقات وقبيح العادات كالزنا والقتل وأكل مال اليتيم ودعاهم إلى كريم الخصال كبرّ الوالدين والرحمة ورعاية اليتيم والمسكين، والاهتمام بالأقربين.

9- يكثر في القرآن المدني دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان، كما تحدث القرآن المدني كثيرا عن سلوك اليهود وتحريفهم كلام الله، وغير ذلك مما ارتكبوا من الجرائم.

ثانيا – علم أسباب النزول :

هذا مبحث جليل من مباحث علوم القرآن، يعتمد عليه في فهم قسم من القرآن نزل لأسباب معينة، إجابة لسؤال، أو بيانا لحكم، أو أمرا يتعلق بحادثة من الحوادث التي وقعت إبان حياة النبي (ص).

وقد اهتم بهذا الموضوع بعض العلماء منذ وقت مبكر، وذكر السيوطي أهم من ألفوا فيه، وهم : علي بن المديني شيخ البخاري، والواحدي والجعبري الذي اختصر كتاب الواحدي بحذف أسانيده، وابن حجر العسقلاني الذي ترك مسودة لكتاب في أسباب النزول لم يكتمل، وذكر السيوطي بعد ذلك الكتاب الذي قام هو بتأليفه ودعاه لباب النقول في أسباب النزول[1].

I – أهمية هذا العلم وفائدته :

قال الواحدي : لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها. وقال ابن دقيق العيد : بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن. وقال ابن تيمية : معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب [2]. وقال أبو الفتح القشيري : بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز [3] .

إن معرفة أسباب النزول إذن يعين على فهم الآيات التي نزلت في مناسبات مختلفة لأسباب معينة جرت إبان حياة الرسول الكريم (ص)، والأقوال التي نقلناها هنا عن علمائنا القدامى لا تحتاج إلى بيان.

وفيما يلي نذكر بعض الأمثلة توضح أهمية العلم بأسباب النزول :

1- حكي عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معد يكرب أنهما كانا يقولان : الخمر مباحة، ويحتجان بقوله تعالى چ ڈ ڈ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گچ[4]. والواقع أنهما لو عرفا سبب نزول هذه الآية لما قالا ذلك، إذ أن سبب نزولها أن أناسا قالوا لما حرمت الخمر: كيف بمن قتلوا في سبيل الله وماتوا وكانوا يشربون الخمر وهي رجس، فنزلت هذه الآية [5].

---

1 - الإتقان، ج1 ص 48.

2- جميع هذه الأقوال من الإتقان، ج1 ص 28.

3- البرهان، ج 1 ص 22.

4- المائدة : 93.

5- أخرجه الإمام أحمد والنسائي.

2- قال تعالى چ گ ګ گبگب ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘﮙ ں ں ڻ ڻ چ [1]. يفهم من هذه الآية أن للإنسان أن يصلّي نحو أي جهة شاء، وأنه لا يجب عليه أن يولّي وجهه شطر المسجد الحرام، يستوي في ذلك من كان مسافرا ومن كان مقيما، لكن الروايات التي وردت عن سبب نزول هذه الآية توضح أنها لا تعفي من وجوب التوجه في الصلاة إلى المسجد الحرام، وقد روي أنها نزلت في نافلة السفر خاصة، أو فيمن تحرى القبلة فصلى، ثم تبين له خطؤه.

فحكم هذه الآية يقتصر على من يكون مسافرا ويؤدي نافلة الصلاة، أو المجتهد في تحري القبلة إذا تبين له خطؤه بعد أداء الصلاة. وروي عن ابن عمران أنها نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت، فسبب النزول هنا يوضح لنا أن حكم الآية يقتصر على أحوال معينة، وليس حكما عاما يعفي من التوجه إلى القبلة في الصلاة.

3- قال تعالى چ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖﮗ چ[2].

لقد أشكل الأمر على عروة بن الزبير، نظرا لورود لفظ جناح، وهو لفظ صريح لا يفيد الفرضية. فسأل خالته السيدة عائشة – رضي الله عنها – فأفهمته أن نفي الجناح هنا ليس نفيا للفرضية، وإنما هو نفي لما وقر في أذهان المسلمين – وهم في مطلع عصر الإيمان – من أن السعي بين الصفا والمروة كان من عمل الجاهلية. فلقد كان على الصفا صنم يقال له إساف، وكان على المروة صنم يقال له نائلة، وكان المشركون في الجاهلية يسعون بين الصفا والمروة، ويتحمسون بالصنمين. ولقد حطم الصنمان بعد أن ارتفعت كلمة الإسلام، لكن المسلمين تحرجوا من السعي بينهما، فنزلت الآية.

ومن هذه الأمثلة، يتبين لنا أن سبب نزول الآية يوضح الأمر أكثر، فيظهر المعنى الحقيقي والدقيق لمفهوم الآية، وبالتالي يكون استنباط الأحكام من القرآن كله صحيح وسليم.

II– عموم اللفظ مع خصوص السبب:

1- البقرة : 115.

2- البقرة : 158.

هناك أبحاث لعلماء أصول الفقه، عن «عموم اللفظ» وخصوص السبب، أي ما نزل من القرآن الكريم بلفظ في سبب خاص، وهل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب. وقد اختلفوا في هذه المسألة، وهذا البحث وأمثاله مما اقتضاه عمل الأصوليين، لأن مهمة هؤلاء الاستدلال بألفاظ الشارع على الأحكام. وصلة هذا بموضوع أسباب النزول هي كيفية الإفادة من هذه الأسباب في استنباط الأحكام.

فهناك آيات نزلت في مناسبات خاصة بألفاظ عامة، مثل آيات الظِّهار في سورة المجادلة، واللِّعان في سورة النور، والقذف في سورة النور أيضا.

فأسباب نزول هذه الآيات كانت في مناسبات خاصة، لكن لفظها كان عامّا، فعممت أحكامها لعموم لفظها، وقال بعض الأصوليين الذين يذهبون إلى أن العبرة بخصوص السبب "أن تعميم الحكم في هذه الآيات ليس مصدر عموم اللفظ، بل قام على أدلة أخرى"[1].

قال الزمخشري في سورة الهمزة:" يجوز أن يكون السبب خاصا، والوعيد عامّا، ليتناول كل من باشر ذلك القبيح، وليكون ذلك جاريا مجرى التعريض" [2].

وفي قوله تعالى چ ڤ ڤ ڦ ڦ ڄ ڄ ڃ ڃ چ [3]. قال سعيد: "قد عرفت فيمن أنزلت، فقال محمد بن كعب: إن الآية تنزل في الرجل، ثم تكون عامة بعد"[4]. وعن نجدة الحنفي قال: سألت ابن عباس عن قوله تعالى: چ ٺ ٺ ٺ ٿ چ [5]. أخاص أم عام ؟ قال : بل عام، مع أنها نزلت في امرأة سرقت [6].

1- محمد عبد السلام كفاني وعبد الله الشريف، في علوم القرآن دراسات ومحاضرات، دار النهضة العربية، بيروت 1981، ص 68.

2- الحديث في علوم القرآن والحديث، ص 45.

3- البقرة : 204.

4- الحديث في علوم القرآن والحديث، ص 46.

5- المائدة : 38.

6- الحديث في علوم القرآن والحديث، ص 46.

وقال ابن تيمية :" وقد يجيء كثيرا من هذا الباب قولهم : هذه الآية نزلت في كذا، لا سيما إن كان المذكور شخصا، كقولهم إن آية الظهار نزلت في امرأة سلمة بن صخر، وإن آية الكلالة نزلت في جابر عبد الله، وإن قوله تعالى ﭽ ۆ ۈ ۇﭼ[1] نزلت في بني قريظة وبني النضير، ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة، أو في قوم من اليهود والنصارى، أو في قوم من المؤمنين. فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق. والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه المعين، إنما غاية ما يقال : إنها تختص بنوع ذلك الشخص فتعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بسبب اللفظ، والآية التي لها سبب معين إن كانت أمرا أو نهيا فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خيرا بمدح أو ذمّ فهي متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته " [2].

ومن أمثلة ما نزل بلفظ عام في سبب خاص، وعمم حكمه قوله تعالى ﭽ ژ ژ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ںﭼ[3]. فهذه الآية نزلت في مناسبة خطيرة هي اتهام السيدة عائشة (رضي الله عنها) فنزل القرآن بتبرئتها مما رميت به، وعيّن حدا لمن يرمي المحصنات. فالحدّ الذي يجب أن يعاقب به قاذف المحصنات حكم عام، بالرغم من أنه نزل في مناسبة خاصة.

وضدّ هذا ما نزل بلفظ عام في سبب خاص وخصص حكمه، كقوله تعالى: ﭽ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چﭼ[4].

لقد أشكل على مروان بن الحكم معنى الآية الكريمة، فقال:" لئن كان كل امرئ يفرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبنّ أجمعون، فبيّن له ابن عباس أن هذه الآية ذات

1- المائدة : 49

2- الحديث في علوم القرآن والحديث، ص 46-47.

3- النور : 04.

4- آل عمران : 188.

حكم خاص، لأنها نزلت في أهل الكتاب حين سأل البني (ص) عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه"[1].

III- طرق معرفة أسباب النزول :

يعرف سبب نزول الآية في الواقعة كذا أو الشخص كذا من طريق النقل الصحيح، ويراد به النقل عن الصحابي، فقول الصحابي المتعلق بأمر لا مجال للاجتهاد فيه، ويكون له حكم الحديث المرفوع إلى النبي (ص)، ذلك أن سبب النزول لا يحتاج في ذكره إلى اجتهاد، وإنما اعتماده على النقل، فمن يقبل في معرفة أسباب النزول ما يروى عن صحابي إذا صح سنده.

وقال الحاكم في علوم الحديث: " إذا أخبر الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا، فإنه حديث مسند، وسار على هذا ابن الصلاح وغيره" [2].

" وقد تنازع العلماء في قول الصحابي: نزلت هذه الآية في كذا، فهل يجري مجرى المسند، كما لو ذكر السبب الذي أنزلت أجله، أم يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند، فالبخاري يدخله في المسند، وغيره لا يدخله فيه، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح، كمسند أحمد وغيره، بخلاف ما إذا ذكر سببا نزلت عقبه، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند " [3].

وقال الزركشي:" وقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال : نزلت هذه الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع "[4].

وسبب النزول في الحقيقة هو ما كان من قبيل السؤال يوجه إلى النبي (ص) أو من قبيل الحادثة تقع في زمانه، فينزل الله تعالى ما يجيب به عن هذا السؤال، ويبين الحكم في هذه الحادثة. وعليه، فإن الآيات التي تخص أخبار الأمم الماضية والأحداث السالفة، ليست مما يدخل في أسباب النزول، فقدوم الحبشة لتحطيم الكعبة ليس سببا في نزول سورة الفيل، وإن كان هو

1- الحديث في علوم القرآن والحديث، ص 46-47.

2- المرجع نفسه، ص 47.

3- المرجع نفسه، ص 48.

4- البرهان، ج1 ص 24.

موضوع هذه السورة، إذ ذكره الله فيها، كما ذكر غيره من الأحداث السالفة، كقصة نوح وعاد وثمود ونحو ذلك [1].

المحاضرة السابعة:
سياقات النص القرآن

أول ما نزل القرآن:

اختلف في أول ما نزل من القرآن على أقوال:

أحدها: وهو الصحيح الذي ذهب إليه أكثر الأئمة، كما قال ابن حجر إنه: ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ[2] لحديث بدء الوحي الذي رواه الشيخان. وأخرج الحاكم في المستدرك والبيهقي في الدلائل وصححه عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: أول سورة نزلت من القرآن " اقرأ باسم ربك ".

ثانيها: "يا أيها المدثر". فقد روى الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت جابر بن عبد الله، أي القرآن أنزل قبل؟ قال: "يا أيها المدثر". قلت: أو "اقرأ باسم ربك، قال: أحدثكم بما حدثنا به رسول الله (ص): "إني جاورت بحراء، فلما قضيت جواري، نزلت فاستبطنت الوادي، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي، ثم نظرت إلى السماء فإذا هو (يعني جبريل)

1- انظر الإتقان، ج1 ص 31.

2- العلق : 1-5.

فأخذتني رجفة رجفة فأتيت خديجة. فأمرتهم فدثروني، فأنزل الله تعالى: "يا أيها المدثر، قم فأنذر". وأجاب القائلون بالقول الأول عن هذا الحديث بأن المراد أولية مخصوصة بالأمر بالإنذار، وعبر بعضهم عن هذا بقوله: أول ما نزل للنبوة "اقرأ باسم ربك" وأول ما نزل للرسالة " يا أيها المدثر "، ويدل على ذلك حديث جابر: فإذا هو: يعي جبريل، وذلك يدل على أنه رآه قبل هذه المرة.

ثالثا: سورة الفاتحة، ودليله ضعيف أخرجه البيهقي في الدلائل كما أخرجه الواحدي.

آخر ما نزل من القرآن:

في آخر ما نزل من القرآن اختلاف أيضا. فقد روى الشيخان عن البراء بن عازب قال: آخر أية نزلت: چ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖچ[1]. وآخر سورة نزلت "براءة" وروى البخاري عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت آية "الربا"، وروى البيهقي عن عمر مثله والمراد بآية الربا، قوله تعالى:چ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮچ[2].

وأخرج النسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: " آخر ما نزل من القرآن: چ□ □ □ □ ى ىچ[3].

وأخرج أبو عبيد في الفضائل عن ابن شهاب قال آخر القرآن عهدا بالعرش "آية الربا" أو "آية الدين".

وفي المستدرك عن أبي بن كعب قال: آخر آية نزلت: چ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ□ □ □ □ □ □ چ[4].

وأخرج مسلم عن ابن عباس قال: آخر سورة نزلت: چ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶچ[5].

1- النساء : 187.

2- البقرة : 278.

3- البقرة : 281

4- التوبة : 128-129.

5- النصر : 01.

وأخرج الترمذي والحاكم عن عائشة قالت: آخر سورة نزلت "المائدة" فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه. قال البيهي: يجمع بين هذه الاختلافات إن صحت، بأن كل واحد أجاب بما عنده.

وقال القاضي أبو بكر في الانتصار: هذه الأقوال ليس فيها شيئا مرفوع إلى النبي (ص)، وكل ما قاله ضرب من الاجتهاد وغلبة الظن، ويحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي (ص) في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل، وغيره سمع منه بعد ذلك.

ملاحظة: من المشكل على ما تقدم قوله تعالى: **چ چ چ چ چچ**[1]، فإنها نزلت بعرفة عام حجة الوداع وظاهرها إكمال جميع الفرائض والأحكام قبلها، وقد صرّح بذلك جماعة منهم: السدّي، فقال: لم ينزل بعدها حلال ولا حرام مع أنه ورد في آية الربا والدين والكلالة أنها نزلت بعد ذلك، وقد استشكل ذلك ابن جرير وقال: الأولى أن يتأول على أنه أكمل بهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام وإجلاء المشركين عنه حتى حجه المسلمين لا يخالطهم المشركون.

وقد أكد ابن جرير هذا الرأي بما أخرجه من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كان المشركون والمسلمون يحجون جميعا، فلما نزلت "براءة" نفي المشركون عن البيت وحج المسلمون، لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين، فكان ذلك من تمام النعمة **چچ چ چچ**[2] .[3]

علم الناسخ والمنسوخ:

رأينا سابقا عندما تحدثنا عن تنجيم القرآن ونزوله مفرقا، أن الوحي كان يفاجئ المؤمنين بالتشريع، وكان يتدرج مع الأحداث والوقائع، وأن هذا التدرج تناول العادات والسلوك والتقاليد الاجتماعية، الشعورية منها والعملية.

1- المائدة : 03.

2- المائدة : 03.

3- كل هذه الأحاديث والأقوال، راجعها في البرهان للزركشي، ج1، والإتقان للسيوطي، ج1، وكذلك كتاب: الحديث في علوم القرآن والحديث، ص 41-42-43.

ولقد تعامل القرآن مع هذه المعتقدات والأفعال بحكمة وبسلاسة مؤمنا بأن إبطالها وإلغاءها يتطلب الكثير من التمهل والتريث، وحمل الناس رويدا رويدا على ترك ما ألفوه وتعودوا عليه، لأن ترك ما رسخ من العادات الشعورية مكلف ومجهد، يقتضي شيئا من المرونة والسياسة الحكيمة أثناء هذا الانتقال من عادات قديمة أخرى جديدة، فرضها واقع الإسلام الجديد.

وإننا نعد هذا العلم "الناسخ والمنسوخ" ضربا من ضروب هذا التدرج في نزول القرآن، فمعرفتنا به يعيننا في معرفة السابق من المسبوق من النوازل القرآنية، ويظهر لنا جانبا مهما من جوانب تربية البشر، ويوقفنا على مصدر القرآن الحقيقي: وهي الله رب العالمين، لأنه يمحو ما يشاء، ويرفع حكما ويبدل آخر من غير أن يكون لأحد من خلقه عمل في ذلك ولا شأن، حتى ولا خاتم النبيين نفسه.

تعريف النسخ:

لقد طال جدل العلماء في تعريف النسخ اصطلاحا، لما توحي به هذه اللفظة من اشتراك لغوي في معانيها.

النسخ لغة: يأتي بمعنى الإزالة، ومن قوله تعالى: ﭽ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﭼ [1]، ويأتي بمعنى التبديل كقوله تعالى: ﭽ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗﭼ [2]. ويأت بمعنى التحويل كتناسخ المواريث، وهو تحويل الميراث من واحد إلى واحد. ويقال أصل النسخ تحويل ما في الخلية من النحل والعسل إلى أخرى. ويأت أخيرا بمعنى النقل من موضع إلى موضع، ومنه: نسخت الكتاب إذا نقلت ما فيه حاكيا لفظه وخطّه.[3]

واختلف العلماء في تعيين المعنى الذي وضع له لفظ النسخ بين الإزالة أو التحويل والنقل. فقيل: إن لفظ النسخ وضع لكل من المعنيين وضعا أوليا، وعلى هذا يكون مشتركا لفظيا

1- الحج : 52.

2- النحل : 101.

3- انظر: أساس البلاغة الزمخشري، ص 454، وقارن هذا البرهان في علوم القرآن، ج2، ص 29، والإتقان في علوم القرآن، ج2، ص 34.

وهو الظاهر من تبادر كلا المعنيين بنسبة واحدة عند إطلاق لفظ النسخ. وقيل: إنه وضع للمعنى للأول وحده، فهو فيه حقيقة، وفي المعنى الآخر مجاز.

وقيل: على عكس ذلك، وقيل: للقدر المشترك بينهما .

النسخ اصطلاحا: النسخ الذي يهتم به الأصوليون وهو الذي ورد في القرآن بمعنى لإزالة، ومعناه: "رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي"[1]، أو "إبدال حكم شرعي بحكم شرعي آخر يرى الله فيه مصلحة لعباده"[2]، وتكون في الغالب للتخفيف عنهم بعد ابتلائهم بأحكام تكون في العادة أكثر تكليفا من الأحكام الناسخة.

وإلى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله: ﭽ ٻ ٻ ٻ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ٺﭼ[3]، وكذلك قوله: ﭽ ۋ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۋ ۋ ۅ ۅ ې ې □ □ □ ﭼ[4].

وهناك شروط لابد منها لتحقيق النسخ:

1- أن يكون المنسوخ حكما شرعيا.

2- أن يكون دليل رفع الحكم دليلا شرعيا.

3- أن يكون هذا الدليل الرافع متراخيا عن دليل الحكم الأول غير متصل به كاتصال القيد بالمقيد والتأقيت بالمؤقت.

4- أن يكون بين ذينك الدليلين تعارض حقيقي.

تلك أربعة لا بد منها لتحقيق النسخ باتفاق جمهرة الباحثين.[5]

طرق معرفة النسخ:

لابد في معرفة النسخ من توفر دليلين عن الشارع، هما متعارضان تعارضا حقيقيا، لا سبيل إلى تلاقيه بإمكان الجمع بينهما على أي وجه من وجوه التأويل، وحينئذ فلا مناص من أن

1- مباحث في علوم القرآن، ص 261، والحديث في علوم القرآن والحديث ص109.

2- في علوم القرآن دراسات ومحاضرات ص 115.

3- البقرة : 106

4- النحل : 101.

5- انظر الحديث في علوم القرآن والحديث، ص 116.

نعتبر أحدهما ناسخا والآخر منسوخا، دفعا للتناقض في كلام الشارع الحكيم. ولكن أي الدليلين يتعين أن يكون ناسخا، وأيهما يتعين أن يكون منسوخا؟

والحكم في هذا يقتضي قيام الدليل على أن أحدهما متأخر عن الآخر فيكون السابق هو المنسوخ، ويكون اللاحق هو الناسخ، ولنا إلى هذا السبيل مسالك ثلاثة:

أولهما: أن يكون في أحد النصين ما يدل على تعين المتأخر منهما نحو قوله تعالى: **ﭽ ﭪ ﭫ** ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﭼ[1].

ونحو قوله تعالى: **ﭽ ﮒ** ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﭼ[2]. ونحو قوله (ص): "كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها ولا تقولوا هجرًا".

ثانيها: أن يعقد إجماع من الأمة في أي عصر من عصورها على تعيين المتقدم من النصين والمتأخر منهما.

ثالثها: أن يرد من طرق صحيحة عن أحد الصحابة ما يفيد تعيين أحد النصين المتعارضين للسبق على الآخر أو التراخي عنه.

يقول الشيخ محمد الخضري: "إذا ورد في الشريعة نصان متناقضان فلا أن يكون أحدهما منسوخا، إذ لا تناقض في الشريعة، والمنسوخ إنما هو المتقدم، ولا يعرف تقدم أحدهما وتأخر الثاني إلا بالنقل، وذلك إما أن يدل عليه لفظ الرسول (ص) نحو: " كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها" أو إجماع الأمة على أن أحدهما متأخر ناسخ، لأن الأمة معصومة من الخطأ، أو بأن يصرح الراوي بتاريخ الناسخ، كأن يقول: سمعت عام الخندق كذا، وكان النص الآخر معلوما قبل ذلك "[3].

أنواع النسخ في القرآن:

1- المجادلة : 13.

2- الأنفال : 66.

3- عبد الكريم زيدان، أصول الفقه، ط4، ص 298.

أنواع النسخ في القرآن ثلاثة:

1- نسخ الحكم والتلاوة معا: وقد أجمع عليه المسلمون، ويدل على وقوعه ما روي عن عائشة -رضي الله عنه- أنها قالت: كانت فيما أنزل من القرآن: عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات. وتوفي رسول الله (ص) وهن فيما يقرأ من القرآن. وأذكر بعض أهل العلم هذا النوع من النسخ كأبي مسلم.

2- نسخ الحكم دون تلاوة: ويدل على وقوعه آيات كثيرة في القرآن كآية الصدقة في سورة المجادلة أمام مناجاة الرسول (ص) وهي قوله تعالى: چ ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀچ [1].

منسوخة بقوله عز وجل: چڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ چ[2]، على معنى أن حكم الآية الأولى منسوخ بحكم الآية الثانية، مع أن تلاوة كلتيهما باقية.

ومنها أن قوله تعالى چڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڌڎ چ[3] منسوخ بقوله تعالى: چۀ ہ ہ ہچ[4] على معنى أن حكم تلك منسوخ بحكم هذه، مع بقاء التلاوة في كلتيهما كما ترى.

ثالثها: نسخ التلاوة دون الحكم: ويدل على وقوعه ما صح عن عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه- وأبيّ بن كعب أنهما قالا: كان من القرآن: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة.

ونحن نعلم أن هذه الآية لم يعد لها وجود بين دفتي المصحف، ولا على ألسنة القراء، مع أن حكمها باق على إحكامه لم ينسخ. وقد أنكر هذا النوع من النسخ أيضا أبو مسلم وفريق من المعتزلة، إذا رأوا أن ورود هذا مستحيلا عقلا.

كيفيات النسخ:

1- المجادلة : 12.

2- المجادلة : 13.

3- البقرة : 184.

4- البقرة : 518.

الحكم الشرعي الذي ينسخه الله، إما أن يحل محله حكما آخر وإما لا فإذا حل محله حكم آخر فذلك هو النسخ ببدل، وإذا لم يحل محله حكم آخر، فذلك هو النسخ بغير بدل.

1- النسخ ببدل: ومثال ذلك أن الله نهى المسلمين أول الأمر عن قتال الكفار ورغبهم في العفو والصفح، فقال: **چک ک ک ک گ گ گ گ گ گ گ گ گ گ گ گ گ گ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓچ**[1]، ثم نسخ الله هذا النهي وأذن لهم بالجهاد. فقال: **چٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀچ**[2].

2- النسخ بلا بدل: ومثال ذلك أن الله أمر بتقديم الصدقة بين يدي مناجاة رسول الله (ص) فقال: **چٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀچ**[3].

ثم رفع هذا التكليف عن الناس من غير أن يكلفهم بشيء مكانه، بل تركهم في حل من ترك الحكم الأول دون أو يوجه إليهم حكما آخر، فقال: **چڦ ڦ ڦ ڦ ڦ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇچ**[4].

3- نسخ الحكم ببدل أخف أو مساو أو أثقل:

أ- النسخ ببدل أخف على نفس المكلف من الحكم السابق، ومثاله نسخ تحريم الأكل والشرب والجماع بعد النوم في ليل رمضان بائحة ذلك، إذ قال الله سبحانه تعالى: **چٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇچ**[5].

1- البقرة : 109.

2- الحج : 39.

3- المجادلة : 12.

4- المجادلة : 13.

5- البقرة : 187.

ب – النسخ إلى بدل مساو للحكم الأول في خفته أو ثقله على نفس المكلف. ومثاله: وجوب استقبال الكعبة بدل بيت المقدس، قال تعالى: ﭽ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗﮘ ﮙ ﮚ ﮛﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨﭼ[1] البقرة 144)

ج– النسخ إلى بدل أثقل من الحكم المنسوخ، ومن أمثلة ذلك: أن الله تعالى نسخ إباحة بتحريمها، ونسخ ما فرض عليهم من مسألة الكفار المحاربين بما فرض عليهم من قتالهم: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕﭼ[2] البقرة 216). ومنها: أن حدّ الزنا كان في فجر الإسلام لا يعدو على التعنيف والحبس في البيوت، ثم نسخ ذلك بالجلد والنفي في حق العازب، وبالرجم في حق الثيب، وكلا الحكمين أثقل من الأول.

ومنها: أن الله تعالى أول ما فرض على المسلمين في الصيام، صيام يوم واحد هو يوم عاشوراء، ثم نسخه بفرض شهر كامل هو شهر رمضان.

نسخ السنة للقرآن:

اختلف العلماء حول جواز نسخ السنة للقرآن، فذهب الشافعي إلى أن القرآن لا ينسخ إلا بالقرآن، والسنة لا تنسخ إلا بالسنة، وذهب إلى هذا المذهب الإمام أحمد وكذلك الظاهرية.

ومن الفقهاء من رأى جواز نسخ السنة للقرآن، لأن القرآن والسنة متكاملان في النص على الأحكام الشرعية، ومن هؤلاء المجوزين الإمام مالك وأبي حنيفة، وجمهور المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة [3].

يقول الشيخ محمد أبو زهرة في هذا الشأن: إن السنة هي المصدر الثاني للفقه الإسلامي، وهي مع هذا الاعتبار تالية للكتاب وتابعة له، فهي تبينه، وتزيد أحكاما متصلة، ولذلك نقول إن الأحكام التي أتت بها السنة لها اتجاهات أربعة:

أولها: أن تكون بيانا للقرآن الكريم

1- البقرة : 144.

2- البقرة : 216.

3- انظر كلا من الحديث في علوم القرآن والحديث، ص 136- 137. وفي علوم القرآن دراسات ومحاضرات، ص 118-117.

ثانيها: أنها تأت بأحكام تثبت في القرآن بالنص، وزاد النبي (ص) في مواضعها أحكام بوحي من الله تترتب عليها أو متصلة بها.

ثالثها: أن تأت السنة بحكم ليس في القرآن نص عليه، وليس هو زيادة على نص قرآني.

رابعها: وهو ما ذكره الإمام الشافعي وهو الاستدلال بالسنة على الناسخ والمنسوخ من الأحكام القرآنية [1].

والمراد بالسنة هنا المتواترة دون الآحاد، لآن السنة المتواترة قطعية الثبوت أيضا كالقرآن، فهما متكافئان من هذه الناحية، فلا مانع أن ينسخ أحدهما الآخر، أما الخبر الواحد، فالحق عدم جواز نسخ القرآن به للمعنى المذكور، وهو أنه ظني، والقرآن قطعي، والظني أضعف من القطعي فلا يقوى على رفعه.

المحاضرة الثامنة :

سياقات النص القرآني

رابعا – السياق التداولي: القراءات القرآنية:

1– مفهومها:

القراءات جمع قراءة، ويقصد بها في معناها الاصطلاحي" مذهب يذهب إليه أحد أئمة القراءات في التلفظ بالقرآن الكريم"[2].

1- انظر في علوم القرآن، ص 119.

2- في علوم القرآن، محاضرات ودراسات، ص 105.

إن القراءة والأداء أمران يتعلقان باللفظ، ويبنيان على وجوه اللغة التي قام عليها. وقد نزل القرآن بلغة العرب بأفصح ما تسمو إليه خصائصها، وما اجتمع لها من تأليف صوتي يكاد يكون موسيقيا محضا، في التركيب والتناسب بين أجناس الحروف، والملاءمة بين طبيعة المعنى وطبيعة الصوت الذي يؤديه.

وقد تم هذا للقرآن مع ما في خصائص العربية من تقلب صور اللفظ، وتحوله عن وضعه الأصلي بحسب ما يلائم العرب في مناطقها.

والطبيعة قد توجد في مفردات اللغة مترادفات واشتراكات، بحيث يدل اللفظ الواحد على معنيين أو أكثر، أو أن يكون الشيئان المختلفان يعبر عنهما بلفظ واحد، أو أن يكون المعنى الواحد يعبر عنه بمفردات عديدة.

ذلك هو السبب الذي من أجله اختلفت بعض آيات القرآن الكريم في قراءاتها وأدائها اختلافا صح جميعه عن رسول الله (ص)، وصحت القراءة بها، وليس معنى القراءات السبع أن كل كلمة من المصحف كانت تقرأ بسبعة أوجه، وإنما كان الخلاف في مواضع محدودة، وكان هذا الاختلاف بين لهجات القراء في عهد الرسول (ص) من الأسباب التي تولّد منها اختلاف القراءات على مرّ الزمان.

وهناك سبب آخر قوي جدا لظهور القراءات، أن مصحف عثمان كتب بغير نقط، وظل كذلك حتى عصر عبد الملك بن مروان، حين قام الحجاج بن يوسف الثقفي بالإشراف على نقط المصاحف، وكانت هذه الفترة التي بقي خلالها المصحف بدون نقط ولا شكل مصدرا من مصادر اختلاف القراءات [1].

– القراءات السبع والأحرف السبع :

ذهب الداوودي وابن أبي صفرة وغيرهما إلى أن هذه القراءات السبع التي تنسب لهؤلاء القرّاء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسع الصحابة في القراءة بها، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة، وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف، ذكره ابن النحاس وغيره.

1- انظر المرجع السابق، ص 107.

وهذه القراءات المشهورة هي اختيارات أولئك الأئمة القراء، وذلك أن كل واحد منهم اختار فيما روى وعلم وجهه من القراءات عنده ما هو أحسن وأولى، فالتزمه طريقة، رواه ووقرأ به واشتهر عنه، وعرف به، ونسب إليه، فقيل حرف نافع، وابن كثير، ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر، ولا أنكره، بل سوّغه وجوّزه، وكل واحد من هؤلاء السبعة روي عنه اختياران أو أكثر وكل صحيح. وقد أجمع المسلمون على الاعتماد على ما صحّ عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات وكتبوا في ذلك مصنفات [1].

قال ابن عطية: ومضت الأمصار والأعصار على قراءة السبعة، وبها يُصلّى لأنها ثبتت بالإجماع، وأما شاذّ القراءات، فلا يصلّى به، لأنه لم يجمع الناس عليه [2].

وقال أبو شامة : " ظنّ قوم أن القراءات السبع الموجودة هي التي أريدت في الحديث، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة، وإنما يظنّ ذلك بعض أهل الجهل"[3].

ويقع اللوم في هذا التوهم على عاتق ابن مجاهد الذي كان شيخ القراء في زمانه، إذ قام بجمع سبع قراءات لسبعة من أئمة الحرمين والعراق والشام اشتهروا بالثقة والأمانة والضبط وملازمة القراءة. وجاء جمعه هذا محض الصدفة، إذ كان من مجموع القراء ولأئمتهم من هم أجلّ منهم قدرا، وكان عددهم لا يستهان به، حتى قال أبو العباس بن عمار يلوم ابن مجاهد :" لقد فعل مسبع هذه السبعة ما لا ينبغي له، وأشكل الأمر على العامة، بإيهامه كل من قلّ نظره أن هذه القراءات هي المذكورة في الخبر، وليته اقتصر فنقص عن السبعة أو زاد ليزيل الشبهة" [4].

إن الأحرف السبعة هي التي كان النبي (ص) يقرئ بها أصحابه، وهي التي نزل بها القرآن، ومع ذلك فقد كانت القراءات في عهد الصحابة كثيرة، وعبارة القراءات السبع لم تكن قد عرفت في الأمصار الإسلامية، وقد ذكر الأئمة الذين ألفوا في القراءات أمثال أبي عبيد القاسم بن سلام وأبي جعفر الطبري وغيرهم أضعاف تلك القراءات.

1- انظر الحديث في علوم القرآن والحديث، ص 56.

2- المرجع نفسه، ص 58.

3- الإتقان، ج1 ص 47.

4- المرجع نفسه، ج1 ص 138.

وإنما بدأت القراءات السبع تشتهر على رأس المائتين بسبب إقبال الناس على بعض الأئمة دون غيرهم لشهرتهم في العلم والفقه والورع ولتفرغهم للإقراء والتعليم، واشتهرت تلك القراءات بسبب توفر التلاميذ والرواة، الذين اعتنوا بها وبنشرها دون غيرها، مع أن هناك ثلاث قراءات بعد القراءات السبع كلها متواترة مشهورة، فتكون القراءات المتواترة إلى النبي (ص) والمتصل بنا سندها إلى يومنا هذا عشر قراءات.

– المراد بالأحرف السبعة :

لقد تعددت أقوال العلماء ومذاهبهم في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا، وذلك لأنه لم يرد نص يحدد الأحرف السبعة، والمراد بها. وقد كان الرسول (ص) يعلم أصحابه كيفية القراءة والأداء، هذا على وجه وذاك على وجه آخر. وبعد وفاة الرسول (ص) تتابع الناس على ما عرفوه من القراءات، ولما جاء عصر التدوين كثرت الاجتهادات في معنى الأحرف السبعة وتحديدها. ولعل أجمع الأقوال وأقومها في ذلك أن يقال: الأحرف السبعة هي الأوجه السبعة التي وسّع الله بها على الأمة، فبأي وجه منها قرؤوا فقد أصابوا [1]. وقيل أيضا في أرجح الآراء: إن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات القبائل العربية [2].

فالحديث الذي ورد عن رسول الله (ص) :" أن القرآن نزل على سبعة أحرف"، يشير إلى خلافات لغوية في قراءة القرآن الكريم، أدت إلى نقاش بين الصحابة، ثم احتكم المختلفون إلى الرسول (ص)، فأقرّ المتنازعين على قراءاتهم، وذكر لهم أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، أي سبع لجهات لبعض القبائل العربية.

– أدلة الأحرف السبع:

روى مسلم عن أبيّ بن كعب أن البني (ص) كان عند أضاءة بني غفار، فأتاه جبريل – عليه السلام– فقال: " إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف. فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وأن أمتي لا تطيق ذلك، ثم أتاه ثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ القرآن على أمتك

1– تأملات قرآنية،

2– في علوم القرآن: محاضرات ودراسات، ص 93.

على حرفين. فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك. ثم جاءه الثالثة، فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ القرآن على أمتك على ثلاثة أحرف. فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك. ثم جاءه الرابعة، فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ القرآن على أمتك على سبعة أحرف، فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا"

وروى الترمذي عنه قال :" لقي رسول الله (ص) جبريل فقال: يا جبريل إني بعثت إلى أمة أمية منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لا يقرأ كتابا قطّ، فقال لي: يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف" [1]. وروى البخاري عن النبي (ص) أنه قال :" أقرأني جبريل على حرف فراجعته ولم أزل أستعيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف" [2].

وروى البخاري في صحيحه عن عبد الرحمن بن عبد القارئ أنه قال: " سمعت عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– يقول: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله (ص) أقرأنيها، وكدت أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف، ثم لببته بردائه، فجئت به إلى رسول الله (ص)، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ على غير ما أقرأتنيها، فقال لي : أرسله، ثم قال له: اقرأ، فقرأ. قال: هكذا أنزلت، ثم قال لي: اقرأ، فقرأت، فقال: هكذا أنزلت. إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا منه ما تيسر" [3].

– أوجه الخلاف في قراءات القرآن :

درس علماء القراءات اختلاف القراء في حروفهم، فوجدوه اختلاف تنوع وتغاير، لا اختلاف تضاد وتناقض، فإن هذا محال في كلام الله.

يقول الإمام ابن الجزري: وقد تدبرنا اختلاف القراءات كلها فوجدناها لا تخلو من ثلاثة أحوال :

1- الحديث في علوم القرآن والحديث، ص 80.

2- تأملات قرآنية، ص 62.

3- ابن الحجر العسقلاني، فتح الباري، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض، ج 5 ص 89.

أحدها:

اختلاف اللفظ والمعنى واحد، مثل "الصراط" و"عليهم"، و"يؤوده" و"القدس"، ونحو ذلك مما يطلق عليه أنه لغات فقط.

والثاني:

اختلافهما جميعا، مع جواز اجتماعهما في شيء واحد، مثل "مالك" و"ملك" في الفاتحة، لأن المراد في القراءتين هو الله تعالى، لأنه مالك يوم الدين وملكه، وكذا "كيف تتشزها" بالراء والزاي، لأن المراد بهما العظام، ذلك أن الله أنشرها، أي أحياها، وأنشزها أي رفع بعضها إلى بعض حتى التأمت، فضمّن الله تعالى المعنيين في القراءتين.

الثالث:

اختلافهما جميعا، مع امتناع جواز اجتماعهما في شيء واحد، بل يتفقان من وجه آخر لا يقتضي التضاد، كقوله تعالى چڑ ک ک ک گ گ چ[1]. فوجه "إن" مخففة من الثقيلة، أي وأنّ مكرهم كان من الشدة، بحيث تقتلع الجبال الراسيات من مواضعها. ووجه آخر "إن" نافية، والمعنى ما كان مكرهم وإن تعاظم وتفاقم ليزول منه أمر محمد ودين الإسلام.

ففي الوجه الأول تكون الجبال حقيقة، وفي الوجه الثاني تكون الجبال مجازا، فليس شيء من القراءات تنافٍ ولا تضاد ولا تناقض [2].

إلا أن القاضي ابن الطيب أرجع أوجه الاختلاف بين القراءات إلى سبعة أوجه، فقال : تدبرت وجوه الاختلاف في القراءة، فوجدتها سبعا:

1- منها ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته، مثل چ ے ۓ ۓ ڭ چ[3] ، وأطْهَرَ، وچڭ ڭچ[4]، أو يَضيقَ.

1- إبراهيم: 46.

2- ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج1 ص 15. والإتقان، ج 1 ص 266.

3- هود : 78.

4- الشعراء : 13.

2- ومنها ما لا تتغير صورته ويتغير معناه بالإعراب، مثل چ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙچ[1]، وبَاعَدَ.

3- ومنها ما تبقى صورته ويتغير معناه باختلاف الحروف، مثل ﴿ نُنْشِرُهَا ﴾ ونُنْشِزُهَا [2]

4- وما تتغير صورته ويبقى معناه، مثل چﭬ ﭭچ[3]، كالصوف المنفوش.

5- ومنها ما تتغير صورته ومعناه، مثل چ ﮍ ﮎ چ[4]، وطلع منضود.

6- ومنها التقديم والتأخير، كقوله تعالى چ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽچ[5]، وجاءت سكرة الحق بالموت.

7- ومنها الزيادة والنقصان، ومنها چ ﮕ ﮖ ﮗ چ[6]، أنثى. وكذلك قوله تعالى چ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ چ [7]، وأما الغلام فكان كافرا . وكذلك قوله چ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ چ[8]، فإن الله من إكراههن لهن [9].

- فوائد اختلاف القراءات:

1- التسهيل والتخفيف على أمة القرآن، فقد كان المسلمون الأوائل ينضوون تحت قبائل متعددة، بينها اختلاف في اللهجات، ونبرات الأصوات، وطريقة الأداء، وشهرة بعض الألفاظ في بعض المدلولات. وكان العربي الذي تعلم من قبيلته لهجة معينة يصعب عليه تجاوزها، والانتقال إلى غيرها. ومن هنا، تأت هذه القراءات طريقا يسهّل على الأمة فهم القرآن وتلاوته، وتيسير ذكره. وتنصرف هذه الفائدة إلى القراءات التي لا تعلق لها بالتفسير ومعاني الألفاظ، وإنما تتصل

1- سبأ : 19

2- البقرة : 259.

3- القارعة : 5.

4- الواقعة : 29.

5- ق : 19.

6- ص : 23.

7- الكهف : 80.

8- النور : 33.

9- انظر الحديث في علوم القرآن والحديث، ص 83-84.

بوجوه النطق بالحروف، والأداء اللفظي للكلمات، الإمالة، وتسهيل الهمز، وهاء الكناية، وأوجه الوقف، والتقاء الساكنين.

2- ومن هذه الفوائد ما تشتمل عليه القراءات السبع أو العشر المتواترة من أوجه البلاغة والبيان والإعجاز والإيجاز، إذ كل قراءة بمنزلة الآية، فكان تنوع اللفظ في السورة يقوم مقام آية، والله عز وجل أراد أن تشتمل آيات القرآن على معان غزيرة في عدد معين منها، وذلك عن طريق احتمال الكلمة نفسها لمعانٍ مختلفة عند ورود التغير فيها وفق مراد الله تعالى.

وقد قال السيوطي في كتابه الإكليل :" إن تعدد القراءات بمنزلة تعدد الآيات "[1]. وأشار وأشار الزركشي في البرهان إلى اختلاف الأحكام الشرعية باختلاف القراءات [2]، وكذلك قرر ابن العربي أن القراءتين كالآيتين، يجب أن يعمل بهما، وقد بحث الفقهاء في وجوه القراءات للاستدلال بها على الأحكام الشرعية [3].

وذهب أبو الليث في كتابه بستان العارفين إلى أنه إذا كان لكل قراءة تفسير يغاير الآخر فقد قال الله سبحانه وتعالى بالقراءتين جميعا وتعتبر القراءتان بمنزلة آيتين، وإذا كان تفسيرهما واحدا كالبُيوت برفع الياء والبِيوت بكسرها، فقد قال إحداهما، وأجاز القراءة بهما لكل قبيلة على ما تعوّد به لسانها [4].

وقد تعرض ابن عاشور في مقدمة تفسيره "التحرير والتنوير" لمسألة الاختلاف بين القراءات المتواترة، وجزم أن الوحي نزل بها جميعا، بغرض تكثير المعاني، وأن جميع الوجوه في القراءات المشهورة مأثورة عن النبي (ص)، ولا مانع من أن يكون مجيء ألفاظ على ما يحتمل تلك الوجوه مرادا لله تعالى، ليقرأ القرآن بوجوه فتكثر من جراء ذلك المعاني، فيكون وجود الوجهين فأكثر في مختلف القراءات مجزئا عن آيتين فأكثر، وهو من بلاغة القرآن، ولذلك فإن

1- انظر أحمد بن محمد الخراط، الإعجاز البياني في ضوء القراءات القرآنية المتواترة، مجمع الملك فهد لطباعة لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، ص 13.

2- البرهان، ج1 ص 474

3- انظر المرجع السابق، ص 14.

4- المرجع نفسه، ص 14.

اختلاف القراء في اللفظ الواحد من القرآن قد يكون معه اختلاف في المعنى، ولم يكن حمل إحدى القراءتين على الأخرى متعينا ولا مرجحا [1].

وقال أبو زهرة: إنه قد يكون اختلاف القراءات مؤديا إلى بيان حكم بقراءة، وبيان حكم متمم له بقراءة أخرى، فتستفاد الأحكام في أوجز تعبير [2]. وكل ذلك من الإيجاز المعجز الذي لا يوجد في كلام الناس، ولكنه موجود في كلام خالق الناس.

3- ومع كثرة هذا الاختلاف وتنوعه في وجوه القراءات في جانب اللفظ والمعنى، لم يتطرق إلى كتاب الله تضاد أو تناقض أو تخالف، بل كله يصدق بعضه بعضًا، ويشهد بعضه لبعض، على نمط واحد وأسلوب واحد، وفي ذلك برهان واضح على صدق ما جاء به النبي محمد (ص)، إذ ليس في مقدرة أحد من الناس أن يأت ببيان على شاكلة البيان القرآني من حيث تعدد الدلالات للكلمة الواحدة عند حدوث اختلاف لفظي طفيف فيها.

4- ومن الفوائد أن بعض الألفاظ تأتي على سبيل الإجمال في قراءة، ثم يفصّل هذا الإجمال في قراءة ثانية المعنى الذي قامت بأدائه القراءة الأولى. ومن هنا، يعيّن على أهل التفسير والفقه واللغة والبلاغة أن يطلعوا على القراءات الصحيحة لاستيعاب دلالة الألفاظ القرآنية، واستنباط ما ترمي إليه من مقاصد وفوائد، لأن كل هذه القراءات وحي من الله، والاستنباط الصحيح منها يعني كسب المزيد من العلم والفهم والتوجيه الرباني.

- شروط القراءة الصحيحة:

وضع أهل العلم بالقراءات شروطا ثلاثة للقراءة الصحيحة، وذلك بعد أن تفرّق القراء في البلدان والأمصار، فخلف من بعدهم خلف فيهم المتقن وغير المتقن، فكثر الاختلاف وعَسُر الضبط، ولذلك وضع الأئمة القراء هذه الشروط لتكون ميزانا يرجع إليه. وهذه الشروط هي :

1- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 1 ص 55.

2- انظر الإعجاز القرآني في ضوء القراءات القرآنية المتواترة، ص 16.

1- صحة السند المتواتر، ويعنون به أن يروي تلك القراءة عن جماعة، وهكذا حتى ينتهي إلى رسول الله (ص)، وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشأن، غير معدودة عندهم من الغلط أو مما شذّ بها بعضهم، من غير تعيين عدد.

2- موافقة العربية، ويعنون به أن توافق القراءة وجها من وجوه العربية، سواء أكان هذا الوجه أفصح من غيره أم فصيحا، مجمعا من قبل علماء العربية، أم مختلفا فيه، وإذا كانت القراءة مما شاع وذاع، وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح.

3- موافقة رسم المصاحف العثمانية، ويعنون به ما وافق رسم أحد المصاحف التي وجهها عثمان إلى الأمصار ولو تقديرا.

إن أي قراءة حازت على هذه الشروط تعتبر قراءة صحيحة، لا يجوز ردها أو إنكارها، ووجب على الناس قبولها، وإن اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق على القراءة أنها شاذة وضعيفة [1].

1- انظر المرجع السابق، ص 20-21.